

الأدب العالمي للناشئين
آخر رجال الموهيكان
جيمس فينيمور كوبر

آخر رجال الموهيكان

آخر رجال الموهيكان

تأليف
جيمس فينيمور كوبر

ترجمة
مروة عبد الفتاح شحاتة



آخر رجال الموهيكان

جيمس فينيمور كوبر

The Last of the Mohicans

James Fenimore Cooper

الطبعة الأولى ٢٠١٢م
رقم إيداع ٢٣٨٠ / ٢٠١٢
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

كوبر، جيمس فينيمور.
آخر رجال الموهيكان/تأليف جيمس فينيمور كوبر.
تدمك: ٤ ٢١ ٥١٧١ ٩٧٧ ٩٧٨

١–القصص الإنجليزية

أ–العنوان

٨٢٣

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي.

المحتويات

الفصل الأول

ساحة المعركة

تجري وقائع هذه القصة في العام الثالث من الحرب الأخيرة بين فرنسا وإنجلترا. كانت الدولتان تتنازعان على الأرض التي ستصبح فيما بعد كندا والولايات المتحدة. شُيِّدت الحصون ودارت المعارك للاستحواذ عليها بعد أن فر الفلاحون من ساحات القتال. كانت حربًا ضارية، لا سيما إبان شهور الشتاء الباردة، وكانت الفرحة تغمر الجنود عندما يهل الصيف.

أيقظ صوت قرع طبول الحرب في منتصف الليل الجنود الإنجليز المتعبين والمنهكين بحصن فورت إدوارد. وعلموا على الفور أن القائد الفرنسي، مونتكالم، قادم من أعلى النهر ومعه جيش كبير. أمر القائد الإنجليزي، الجنرال ويب، جنوده الألف والخمس مئة بالتحرك على امتداد النهر عند الفجر لمواجهة الجيش الفرنسي عند حصن فورت ويليام هنري.

مع بزوغ الضوء الأول من الفجر امتطى الجنود خيولهم القوية ومضوا في طريقهم. وسارت من خلفهم عربات كبيرة تحمل الإمدادات، وتستثير الثرى أثناء مرورها.

وبداخل منزل الجنرال ويب، كانت كورا وأليس مونرو — ابنتا الجنرال مونرو الذي كان مسئولًا عن حصن فورت ويليام هنري — تستعدان لرحلتهما إلى حصن فورت ويليام هنري. ووقف بالخارج الرائد دانكن هيوارد يطمئن أن كل شيء جاهز للرحلة، ووقف إلى جواره مرشد من الهنود الحمر يدعى ماجوا.

كان من المحتمل أن تكون الرحلة إلى حصن فورت ويليام محفوفة بالمخاطر، لا سيما مع قدوم مونتكالم للانقضاض على الإنجليز. لذا كانت مهمة دانكن وماجوا إيصال الفتاتين كورا وأليس إلى حصن فورت ويليام هنري بسلام.

وقف دانكن يحكم ربط سروج الخيول، وكان أكثر ما يشغل باله هو سلامة أليس، فقد كان يُكِنّ لابنة الجنرال مونرو الجميلة مشاعر حب قوية، ولا يتمنى أن يراها تتعرض للأذى بأي شكل من الأشكال.

وأثناء تجهيز دانكن وماجوا للخيول اقترب رجل طويل ونحيف منهما. كان يرتدي قبعة كبيرة ويحمل صافرة صغيرة.

قال الرجل لدانكن: «يا له من حصان جميل، رأيت الكثير من هذا النوع في نيو هافن. إنه رائع المنظر، أليس كذلك؟»

رمقه دانكن بنظرة غريبة واستأنف استعداداته. وقف الرجل الغريب برهة في انتظار إجابة، لكن عندما لم يجدها مضى في طريقه.

بعد مرور بضع دقائق انفتح باب الكابينة وخرجت الشقيقتان. كانت أليس الصغرى جذابة للغاية. كانت شقراء وعيناها زرقاوين، وغاية في الجمال. ساعدها دانكن وهي تمتطي حصانها. ابتسم لها ابتسامة رقيقة، ثم احمرت وجنتاه قليلًا عندما شكرته على مساعدته لها.

ثم استدار إلى كورا وساعدها على امتطاء حصانها. خرج الجنرال ويب لوداعهم، فأومأ الثلاثة برءوسهم مودعين، ثم مضوا في طريقهم.

وما إن خرج دانكن والفتاتان من المعسكر حتى تجاوزهم ماجوا ممتطيًا حصانه بسرعة. فزعت أليس من سرعته وصاحت: «يا إلهي!».

حدقت كورا بعينيها المتقدتين أمامها مباشرة دون أن تشعر بالذعر؛ بل جذبت في هدوء وشاحها للأسفل ليغطي شعرها البني الداكن وعينيها البنيتين الداكنتين أيضًا.

الفصل الثاني

الرحلة

ضحكت أليس من ذعرها، وقالت لدانكن: «ظننت للحظة أنه شبح! عليّ أن أتحلى بالشجاعة أكثر كابنة أصيلة لعائلة مونرو، ما دمنا سنصطدم بمونتكالم.»

قال دانكن: «ماجوا يعرف طريقه حول بحيرة ليك جورج. إذا كنا سنعود إلى حصن فورت ويليام هنري بأمان، فهو من سيدلنا على الطريق. ولن تكون هناك فرصة لمواجهة مونتكالم.»

سألته أليس: «هل تعرف ماجوا جيدًا؟ أعني، هل تثق به؟»

أجاب دانكن: «أعرفه جيدًا، وأثق به بالفعل. يقال إنه من أبرع المرشدين من الهنود الحمر. وانتهى به الحال في معسكرنا بالمصادفة إلى حد ما، لكنني لا أعرف قصة انضمامه إلى معسكرنا بالكامل. أعتقد أن أباك كان طرفًا في ذلك الأمر. وفي النهاية يكفي أنه صديقنا.»

سألته أليس: «أعتقد أنني لن أخشاه كثيرًا إذا سمعته يتحدث، هل من الممكن أن تتحدث معه يا دانكن؟»

أجاب دانكن: «إنه قليل الكلام، لكنه يعلم الطريق؛ لا داعي للخوف. انظري، لقد توقف.»

بالفعل توقف ماجوا أمامهم، ثم أشار إلى أيكة بجانب الطريق العسكري وقال: «هذا هو الطريق.» كان ممرًّا مليئًا بالأشجار والأجمات الكثيفة.

سألت أليس: «ما رأيك يا كورا؟ أليس من الآمن أن نسلك الطريق الذي سلكه الجنود هذا الصباح؟ أم ينبغي لنا عدم التمسك بذلك الطريق؟»

لكن كورا أجابت: «إذا وصل الفرنسيون إلى ذلك الطريق فسنكون في خطر. لعله من الأفضل أن نسلك الطريق الذي أشار إليه ماجوا، بحيث يبقى سفرنا سرًّا، فآخر ما نتمناه أن تقع ابنتا جنرال إنجليزي في أسر الفرنسيين!»

ثم ركلت حصانها بكعب حذائها وجذبت اللجام وسارت بين الشجيرات خلف ماجوا، ثم تبعتها أليس ثم دانكن.

كان الطريق وعرًا، وساروا دون أن ينطق أحد بكلمة واحدة. وفجأة سمعوا صوت حصان يتقدم نحوهم فتوقفوا. ثم رأوا رجلًا طويل القامة يركب فوق مهر صغير. كان هو الرجل نفسه الذي حاول أن يكلم دانكن وماجوا بالحصن!

صاح دانكن: «أنت لست رسولًا، أرجو أن تكون حسن النية.»

قال الرجل: «سمعت أنكم متجهون نحو حصن فورت ويليام هنري، وأنا أيضًا في طريقي إلى هناك وفكرت في أن نذهب معًا. يمكنكم أن تستفيدوا من صحبتي.»

قال دانكن: «لم تسألنا هل نحن بحاجة إلى صحبتك من الأساس أم لا!»

قال الرجل: «لقد فكرت في ذلك كثيرًا، ووجدت أنكم بحاجة إلى صحبتي بالفعل.»

قال دانكن ببرود: «الطريق إلى البحيرة في الاتجاه الآخر.»

قال الرجل: «أجل أعلم ذلك الطريق إلى الحصن، لكنني سمعت أن الجنود خرجوا هذا الصباح، ولا أريد الاصطدام بالفرنسيين، وأعلم أن لديك الهدف ذاته، ويبدو أنك تعرف طريقًا سريًّا، لذا ها أنا ذا أسير معكم.»

لم يعلم دانكن هل يضحك أم يستسلم لغضبه المتزايد، وسأل الرجل: «من أنت؟ ما اسمك؟»

أجاب الرجل بفخر: «أنا أستاذ في فن الغناء، واسمي ديفيد جاموت.»

قال دانكن: «لا أظن أننا بحاجة إلى سماع أغانيك. لا بد أن نسير في هدوء لـ ...»

قاطعته أليس: «بربك يا دانكن، لا تغضب. دعه يأتِ معنا.»

نظر دانكن إلى أليس لبرهة، ثم رضخ لرغبتها في النهاية، فهو لا يستطيع أن يرفض طلب شخص عزيز جدًّا على قلبه. أثناء مواصلة المجموعة سيرها في الطريق بدأت كورا ودانكن يتحدثان عن الوقت الذي يمكن أن يستغرقوه للوصول إلى الحصن، بينما سألت أليس ديفيد في أدب عن عمله. وعلى الفور، بدأ معلم الموسيقى في الغناء بأعلى صوته.

قال دانكن: «سيكون من الأفضل إن التزمنا الهدوء ونحن نشق طريقنا في الغابة. معذرة يا أليس، أعلم أنك تستمتعين بسماع الأغنية، لكن هذا سيعرضنا للخطر.»

أجابته أليس: «لكنها أغنية جميلة للغاية!»

قال: «لا يهمني سوى سلامتك أنت وكورا. من فضلك يا سيدي لا بد أن تتوقف عن الغناء.»

الفصل الثالث

هوكاي وآخر رجال الموهيكان

على بعد بضعة أميال من دانكن ورفاقه، جلس رجلان يتحدثان بجانب نهير صغير في أعماق الغابة. أحدهما كان رجلًا قوي البنية أسود الشعر، يجلس فوق زند خشب مغطى بالطحالب. كان اسمه هوكاي ويرتدي قميص صيد أخضر داكنًا بالي اللون وحذاء رماديًّا بدون كعب، ويحمل في حزامه سكين صيد حادة، وإلى جواره بندقية مرتكزة إلى شجرة بجانبه.

كان هوكاي وتشينجاتشجوك، زعيم قبيلة الموهيكان، مستغرقين في حديث عن السرعة التي يتغير بها العالم من حولهما. قال تشينجاتشجوك: «ابني أنكس هو آخر سلالتنا، فهو آخر رجال الموهيكان. عندما يموت ستنتهي معه قبيلتنا.»

في تلك اللحظة، مر محارب شاب من بينهما وجلس بجانب تشينجاتشجوك.

قال أنكس: «ها أنا ذا، فيم تتحدثان؟»

أجابه تشينجاتشجوك: «كنت أتحدث أنا وهوكاي عن الماضي والمستقبل.»

اقترب المحارب الشاب من الأرض وأصغى ثم قال: «أسمع صوت أقدام خيول.»

اقترح هوكاي: «ربما كانت الذئاب.»

أجاب أنكس: «كلا، إنهم قومك — الإنجليز — قادمون من الحصن. لا بد أن تذهب وتتحدث معهم.»

قال هوكاي: «كنت لأذهب لو أنني سمعت أي شيء!» ثم ابتسم وأردف: «لكنني لا أسمع أي صوت على الإطلاق!»

أشار له أنكس كي يصمت. وسمعوا صوت تحطم غصن جاف.

همس هوكاي: «إنهم هناك، حسبت خطأ أنه صوت الشلالات. أستطيع سماعهم الآن. ليت أفراد قبيلة الهيرون لا يسمعونهم. يجب أن أذهب وأحذرهم أن الغابة ليست آمنة.»

لكن قبل أن ينطلق هوكاي ليبحث عن راكبي الخيول، ظهر دانكن والفتاتان أمامه.

سأل هوكاي: «من أنتم؟ وماذا تفعلون في هذا الجزء من الغابة؟»

قال دانكن: «أنا جندي مسئول عن إيصال هاتين الفتاتين إلى حصن فورت ويليام هنري. أمضينا معظم اليوم في السفر.»

سأله هوكاي: «هل ضللتم الطريق؟»

قال دانكن: «أعتقد ذلك، هل تدري كم نبعد عن الحصن؟»

ضحك هوكاي، ثم صمت، خشية أن يسمعه أفراد قبيلة الهيرون: «أنت تسير في الاتجاه الخاطئ. حري بك أن تذهب إلى حصن فورت إدوارد، حيث يوجد الجيش، وتتحدث مع الجنرال ويب، فهو المسئول هناك.»

اقترب ديفيد منهم وقال: «لقد غادرنا حصن فورت إدوارد هذا الصباح. كم نبعد عن حصن فورت ويليام هنري؟»

أجابه هوكاي: «لا بد أنك فقدت بصرك قبل أن تضل الطريق؛ فهناك طريق يأخذك مباشرة إلى حصن فورت ويليام هنري.»

أجابه دانكن: «إنه طريق رائع، لكن كي نبتعد عن الفرنسيين ونكون في أمان استأجرنا مرشدًا من الهنود الحمر، يدعى ماجوا، ليدلنا على طريق مختلف، والآن ضللنا الطريق.»

نظر هوكاي إلى دانكن وقال: «مرشدًا من الهنود الحمر، وضللتم الطريق في الغابة؟ يبدو هذا غريبًا. هل هو من قبيلة الموهاك؟»

أجاب دانكن: «أظن أنه من الشمال. لعله من قبيلة الهيرون؟»

عندئذ نهض تشينجاتشجوك وأنكس ووقفا إلى جوار هوكاي. قال هوكاي: «يبدو أنه كان لا ينبغي لكم الوثوق في ذلك المرشد.»

قال دانكن: «كلا، لا تكن سخيفًا. إنه صديقنا، وأنا أثق به. والآن أخبرنا كم نبعد عن حصن فورت ويليام هنري؟ سنكافئك جيدًا إذا أرشدتنا إلى هناك. أنا الرائد دانكن هيوارد، وهاتان ابنتا الجنرال مونرو، تحاولان الوصول إلى مقر قيادة أبيهما.» وأشار إلى كورا وأليس، اللتين كانتا تنتظرانه بصبر.

بدا هوكاي مندهشًا: «أجل سمعت أن جماعة من الجند ستغادر هذا الصباح متجهة إلى حصن فورت ويليام هنري. أنا المرشد هوكاي؛ يبدو لي من الغريب أن يتركك مرشدكم.»

قال دانكن: «أعتقد أنه سبقنا بمسافة طويلة.»

قال هوكاي: «يبعد حصن فورت ويليام هنري مسافة ساعة سيرًا بالخيل، سأدلك على الطريق، لكنها رحلة شاقة لا تتحملها النساء.»

لم تسمعه كورا وأليس، وإلا لاحتجتا على قوله بشدة. لكن دانكن أخبر هوكاي أنه على الرغم من أنهم يشعرون بالتعب فبإمكانهم السير لساعة أخرى. ثم همس إليه: «بدأت أشك في أن مرشدنا كان يتعمد تضليلنا، لذا جعلته يسبقنا. وأنا الآن مقتنع أنه لن يعود.»

قال هوكاي: «انتظروا هنا. سنعثر عليه سريعًا، وعلى الحقيقة.» ثم تنحى جانبًا ليتحدث مع تشينجاتشجوك وأنكس، وانطلق ثلاثتهم في الغابة.

الفصل الرابع

مخبأ سري

انتظر دانكن مع الفتاتين وديفيد لدقيقة، لكنه قرر بعد ذلك أنه ينبغي له المساعدة في البحث عن المرشد الغائب، ماجوا.

قال دانكن: «كورا وأليس، ستكونان بأمان هنا مع ديفيد. سأذهب للعثور على هوكاي وأرى ما يحدث.»

قالت أليس: «يا إلهي، هل تظن حقًّا أن ماجوا تخلى عنا؟»

أجاب دانكن: «كل شيء سيكون على ما يرام يا عزيزتي. تعلمين أنني لن أسمح بوقوع مكروه لك أو لشقيقتك.»

ابتسمت أليس، وقالت كورا: «سنكون بخير. نحن قويتان، فنحن ابنتا مونرو! حظًّا سعيدًا!»

لم يسر دانكن بحصانه سوى مئة ياردة حتى وجد هوكاي وتشنجاتشجوك وأنكس. كان ثلاثتهم واقفين يتباحثون في أمر ما.

سألهم دانكن: «ماذا حدث؟»

أجابه هوكاي: «لقد فر منا.»

قال دانكن: «حسنًا، لنذهب! يمكننا أن نعثر عليه. نحن أربعة وهو واحد.»

قال هوكاي: «أجل، لكن من السهل أن يستدعي الآخرين ليحاربوا معه. علينا أن نتحرك كي لا يعثر علينا بسهولة.»

نظر دانكن لأعلى ورأى السحب تنجلي، وبدأ الليل يرخي سدوله. أراد دانكن أن يجذب انتباه هوكاي، لكن هوكاي كان يتحدث مع تشينجاتشجوك وأنكس بلغة الديلاوير؛ لغة شعبهم. بدأ الرجال الثلاثة في الابتعاد.

قال دانكن: «انتظروا! أين ستذهبون؟»

توقف الرجال وتحدثوا بعضهم مع بعض مرة أخرى. وبعد بضع دقائق استدار هوكاي إلى دانكن وقال له: «أنكس على حق، لا يمكننا أن نتركك تائهًا في الغابة تحت رحمة مرشدك.»

قال دانكن: «لقد أخبرتكم بالفعل أننا سندفع لكم ما تريدون.»

نظر هوكاي إليه وقال: «نحن لا نريد مالك، سنساعدك لأن هذا ما ينبغي فعله. لكن عليك أن تعدنا بشيئين.»

قال دانكن: «أجل، بالطبع.»

قال هوكاي: «أولًا: عليك أن تكون صامتًا كالحجر ولا تتدخل فيما يحدث. ثانيًا: عليك أن تحفظ سر المكان الذي سنأخذك إليه.»

أومأ دانكن برأسه موافقة وقال: «حسنًا، لنذهب؛ لم يبق أمامنا متسع كبير من الوقت قبل أن تغرب الشمس تمامًا.»

عاد الرجال الأربعة إلى المكان الذي ينتظر فيه ديفيد وأليس وكورا. أخبرهم دانكن سريعًا ما حدث للمرشد ماجوا، ثم ساعد الفتاتين على النزول من فوق الحصان. شرح لهما أن ماجوا خانهم وأنه قد يحاول إلحاق الأذى بهم، وأن عليهم الذهاب مع هؤلاء الرجال؛ أنكس وتشينجاتشجوك وهوكاي.

وثقت كورا وأليس في رأي دانكن ومضتا معه، وتبعهم ديفيد. وقابلوا هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك بجانب حافة النهر.

قال هوكاي: «علينا إطلاق سراح الخيول؛ فإذا رآها ماجوا ورجاله تأكل الأعشاب عند ضفاف النهر سيفترضون أنك نصبت مخيمًا بالقرب منها. فرصتنا الوحيدة للهرب هي السير على الأقدام.»

قبضت الفتاتان إحداهما على يد الأخرى لإخفاء شعورهما بالخوف، في حين تفحص دانكن المنطقة المحيطة بعناية. وخلع هوكاي ألجمة الخيول وأطلق سراحها. ثم بدأ يسير مبتعدًا، وتبعته المجموعة الصغيرة.

وبعد أن قطعوا مسافة قصيرة من الوادي الصغير المنعزل ساروا أسفل شلال وخرجوا من الجهة الأخرى. وكشف هوكاي الغطاء عن زورقين مختفيين وسط الشجيرات، وأشار إلى كورا وأليس لتركبا أحدهما، وانضم إليهما. وركب دانكن وديفيد وتشينجاتشجوك وأنكس في الزورق الآخر. وأثناء تجديفهم، أصغى هوكاي لكل صوت يصدر من الغابة.

بدأ جريان المياه يتسارع، وخافت أليس وكورا أن تصطدما بالصخور، لكن هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس كانوا بارعين في التجديف. وسرعان ما وصلت المجموعة إلى جزء صخري من النهر وأوقف هوكاي الزورق.

قال هوكاي للمسافرين: «انتظروا هنا، سنذهب لنتأكد أننا في أمان.»

ترك هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس باقي الأفراد فوق الصخور. ولم يمر وقت طويل قبل أن يعودوا.

قال هوكاي: «هلموا الآن.» ثم خبأ الزورقين تحت بعض الشجيرات، واختفى بين الصخور.

الفصل الخامس

ملاذ آمن

كان بجانب الصخور مدخل سري إلى سلسلة من الكهوف. أشار هوكاي إلى الجميع ليدخلوا إلى الكهف، وبعد أن دخلوا بين الجدران الصخرية توجه هوكاي وأنكس إلى الخارج لحراسة المكان.

سألت أليس: «هل تظن أننا في أمان الآن يا دانكن؟»

قبل أن يجيبها، قال هوكاي: «النيران تزداد وهجًا يا أنكس. أرخ البطانية فوق مدخل الكهف.»

صاح دانكن: «هل نحن في أمان هنا؟ هل هناك خطر أن يباغتنا أحدهم؟»

تحرك شيء في مؤخرة الكهف فصرخت الفتاتان في ذعر، لكنه كان تشينجاتشجوك يعرفهم بالمدخل الآخر للكهف.

قال هوكاي وهو متجه نحو مؤخرة الكهف: «انظروا، هناك مخرج آخر. ستكونون في أمان هنا.»

تطلع دانكن حوله ثم سأل: «هل هذه جزيرة أو شيء من هذا القبيل؟»

أجابه هوكاي: «نحن بين شلالين، فالنهر فوقنا وأسفلنا.»

أثناء إعداد المجموعة لعشاء بدائي من لحم الغزلان، بذل أنكس ما في وسعه ليتأكد أن كورا وأليس تشعران بالراحة. وجلس تشينجاتشجوك بعيدًا عن المجموعة وراقب كل شيء بعناية.

قال هوكاي للموسيقي: «والآن، لست أعرف من أنت.»

أجابه الموسيقي: «أنا ديفيد جاموت.»

سأله هوكاي: «أخبرني ما مهنتك؟»

أجابه ديفيد: «أنا أعلم الغناء.»

قال هوكاي: «تلك مهنة غريبة. لماذا لا تغني لنا قليلًا؟ هذا سيروح عن الفتاتين؟»

بدأ ديفيد يغني في هدوء، وانضمت إليه كورا وأليس في الغناء.

وفجأة جاءت صيحة غريبة أسكتت الغناء، وعم الصمت المكان.

همست أليس: «ماذا كان ذلك؟»

لم يجبها أحد. وتحدث هوكاي إلى الموهيكانيين، وبعدها غادر أنكس الكهف في هدوء.

قال هوكاي: «لا ندري مصدر هذه الصيحة، فهذا الصوت لم نسمعه من قبل في الغابة.»

سألته كورا: «أليس هذا الصوت ما يطلقه الجنود قبل المعركة.»

قال هوكاي: «لو أنك سمعت من قبل صرخة محارب، لما خلطت قط بينها وبين هذا الصوت.»

عاد أنكس إلى الداخل.

سأله هوكاي: «هل ترى النيران من الخارج؟» فهز أنكس رأسه نفيًا.

قال هوكاي للفتاتين: «نحن بأمان إذن.» ثم أشار إلى الكهف الثاني وقال: «اذهبا يا كورا أنت وأليس وخُذا قسطًا من الراحة. سنقطع معظم غد سفرًا، أنتما بحاجة إلى الراحة.»

نهضت كورا وفعلت ما طلبه هوكاي، ونهضت أليس أيضًا، لكن قبل أن تشق طريقها داخل الكهف طلبت من دانكن أن يأتي معهما. قالت: «أرجوك لا تتركنا وحدنا، فقد أثارت تلك الصيحة المخيفة ذعري بشدة.»

قال دانكن: «لنتفحص الكهف أولًا ونتأكد أنه آمن.» وأمسك بشعلة من النيران وأضاء بها في كل اتجاه، وتفقد المكان حوله بعناية ثم قال: «الرجال الطيبون يحمون الجهة الأمامية من الكهف، ومن المستحيل أن يصل أي شخص إلى مؤخرة الكهف دون أن نسمعه. أؤكد لكما، أنتما في أمان تام.»

قالت أليس بصوت خافت: «أعتقد أن أبي قلق علينا للغاية.»

قالت كورا: «أليس، يجب أن تتحلي بالشجاعة. أنا أختك الكبرى، اقتدي بي.»

أضاف دانكن: «وأبوك رجل عسكري، وهو يعلم أنني معكما للحفاظ على سلامتكما. فهذا واجبي.»

قالت أليس: «لكنه أبونا مع ذلك، وأنا واثقة أنه قلق.»

وقبل أن ينطق أحدهما بكلمة أخرى دوت الصيحة العالية الحادة مرة أخرى. رفع هوكاي البطانية التي تغطي المدخل ونظر إلى ثلاثتهم. وارتعدت الفتاتان، وحتى وجه دانكن الشجاع بدا مرتبكًا.

كان هناك خطر ما يحيط بهم، وحتى رجل يألف الغابات مثل هوكاي لم يكن مطمئنًّا تمامًا لما قد يحدث.

الفصل السادس

اكتشاف مصدر الصوت

قال هوكاي للفتاتين: «انتظرا هنا، وأنت يا دانكن، يمكنك أن تأتي إلى الخارج لمراقبة الغابة معنا.»

سألت كورا: «هل نحن في خطر كبير؟»

أجابها هوكاي: «من أصدر ذلك الصوت هو وحده من يعلم ذلك.»

قالت كورا: «ماذا لو لم يكن رجلًا وإنما شبحًا؟ أو ربما كان أعداؤنا يصدرون ذلك الصوت المروع لإخافتنا.»

قال هوكاي: «ما من صوت بشري يمكن أن يخدعني. أنا أعلم أصوات هذه الغابة تمامًا. ومع ذلك لا أستطيع أنا أو أنكس أو تشينجاتشجوك معرفة ذلك الصوت.»

قال دانكن: «أمر عجيب. هيا بنا نرَ ماذا يمكن أن يكون ذلك الصوت.»

قالت كورا وهي تجذب أليس إلى جانبها: «سنأتي معكما.»

قال دانكن: «أنا مصر على أن تمكثا هنا، أنا مسئول عن سلامتكما، ولا أظن أن أباكما كان سيقبل أن أسمح لكما بالخروج في الغابة ونحن لا نعلم مصدر ذلك الصوت.»

قالت كورا: «لكن يا دانكن ألن نكون في أمان أكثر إذا كنا معك أنت وهوكاي؟»

قال هوكاي: «قد تكون على حق. تعاليا، سنخرج كمجموعة.»

هب نسيم قوي طوال المساء، وكان الهواء باردًا، وسعد الجميع بالوجود في الغابة. كان كل شيء ساكنًا. لم يكن هناك ما يتحرك في الغابة سوى الجداول والشلالات. كان جميعهم ينظر تجاه الشاطئ، في محاولة منهم لاكتشاف مصدر الصوت المروع.

قال دانكن: «لا يوجد شيء سوى النهير، لولا ذلك الصوت لكنا استمتعنا بهذه الليلة. أتساءل ...»

قاطعته أليس: «صمتًا! اسمع.»

وكالمتوقع دوى الصوت الغريب مرة أخرى.

صاح هوكاي: «أظهر نفسك يا صاحب الصوت. أظهر نفسك الآن!»

قال دانكن: «مهلًا، أعرف ذلك الصوت. هذا الصوت يصدره الحصان عندما يكون في ورطة. لم أتعرف عليه من قبل لأنه كان يتردد بين جدران الكهف. لقد سمعته في المعارك. لا بد أن أحد الخيول واقع في شَرك ما.»

تحدث هوكاي إلى أنكس وطلب منه تفقد الخيول.

وقال للباقين: «انصبوا خيمة هناك، أسفل تلك الشجرة. سننتظر هنا حتى بزوغ الضوء الأول من الفجر.»

زال قلق هوكاي بعد أن عرفوا مصدر الصوت. وعاد أنكس وأخبرهم أن أحد الخيول حُبِسَ حافره في جذر شجرة.

رقدت الفتاتان إحداهما بجانب الأخرى واستغرقتا في النوم على الفور. ومرت ساعات. ونام ديفيد ودانكن أيضًا. ولم ينم هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس؛ فقد ظلوا يراقبون الغابة.

وفي النهاية، مع بزوغ ضوء واهن من النهار، نهض هوكاي واقفًا وأيقظ دانكن قائلًا: «أيقظ كورا وأليس، واستعدوا وقابلونا عند الشاطئ. سأحضر الزورقين.»

قال دانكن: «لا بد أن النعاس غلبني، فقد حاولت أن أظل مستيقظًا بالفعل.»

قال هوكاي: «لم يطلع النهار بعد. أسرع، وكن هادئًا.»

جذب دانكن الشال الذي كان يغطي كورا وأليس. رفعت كورا يدها كما لو كانت تطلب منه التوقف عن ذلك، أما أليس فتمتمت في نومها: «كلا، كلا يا أبي. دانكن كان معنا، لم نكن وحدنا.»

ابتسم دانكن ثم همس: «كورا، أليس، حان وقت الاستيقاظ.»

وفجأة دوت أصوات وصيحات مروعة من كل اتجاه؛ فانتصبت كورا في جلستها على الفور وصرخت أليس.

نهض ديفيد وقال: «سحقًا، ماذا كان ذلك؟»

دوى صوت رصاصة، ومرت من جانب ديفيد، لكنها لامست أذنه. لحسن الحظ أمسك به دانكن قبل أن يسقط، ثم جذب ديفيد والفتاتين إلى الكهف مرة أخرى: «ستكونون في أمان هنا.»

جاء هوكاي راكضًا تجاههم وقال: «إنه محظوظ لأنه لا يزال على قيد الحياة.»

سألته كورا: «هل سيكون بخير؟»

أجابها هوكاي: «امكثي هنا معه، سنعود فور أن نتمكن من ذلك. إذا كان لديك منديل ضعيه فوق أذنه. سيستيقظ عما قريب، فإصابته ليست بالغة.»

سحبت كورا منديلها من حزامها وفعلت كما أخبرها هوكاي.

سمعت الفتاتان صرخات وصيحات ونداءات من الغابة.

أسرع هوكاي إلى أنكس وتشينجاتشجوك، اللذين كانا يصدان هجمات الأعداء. وانتظر دانكن حتى يفيق ديفيد، ثم نهض هو الآخر ليلحق بالآخرين.

قالت أليس: «لا تذهب يا دانكن.»

ابتسم في رقة لها سعيدًا بخوفها عليه وقال: «إنه واجبي. هناك ما لا يقل عن أربعين رجلًا، وعليّ مساعدة هوكاي. سأكون بخير، أعدك بذلك.»

تسلل دانكن إلى الخارج وانحنى بجانب هوكاي فوق الصخور أمام الكهف. راقب الرجلان أعداءهما وهم يتمركزون عند النهر. حاول أفراد من القبيلة المعادية عبور النهر، لكن التيار كان قويًّا للغاية. غرق أحد المحاربين في الماء بالقرب منهما، وكاد دانكن أن يهب لنجدته.

همس هوكاي: «انتظر، ستفضح أمرنا إذا غادرت الآن.»

صفر هوكاي، فحضر أنكس إلى جانبهما. وفي اللحظة ذاتها خرج أربعة رجال، من بينهم ماجوا، من الغابة، لكنهم كانوا بعيدين عنهم بعدة ياردات، لكن صدى صيحاتهم تردد في المكان من حولهم. وانتظر هوكاي وأنكس بصبر حتى يقتربوا.

وعندما اقتربوا في النهاية جرت معركة ضارية. سُمِعَت صرخات حادة وصيحات سريعة. ودار العراك بالأيدي والقبضات، وقاتل دانكن بكل قوته. وببطء سقط الأعداء.

صاح هوكاي: «هيا! اركضا إلى الكهوف.»

أطلق أنكس صيحة وتبع دانكن وهوكاي إلى المخبأ بين الصخور.

الفصل السابع

رصاصة من بين الأشجار

لم يصب أحد بأذى في المعركة سوى ديفيد. ظل تشينجاتشجوك في موقعه، فيما رقد هوكاي على الأرض في مكان آمن ومنعزل وراقب الغابة بعناية. وسُمعت أصوات طلقات من مسافة بعيدة. ووقف أنكس متيقظًا لحراسة المكان.

صاح هوكاي: «دعهم يهدرون طلقات الرصاص!» ثم ضحك وقال: «نحن نعلم أننا في أمان.»

تمدد دانكن بجانب هوكاي وقال: «أنا مدين لأنكس بالكثير. فور أن تركت الكهف باغتتني أحد رجال العدو، فجذبني أنكس بعيدًا وأنقذ حياتي.»

ظهر أنكس بجانبهما فجأة. ربت أنكس على ظهر دانكن وقال: «أصدقاء؟»

أومأ دانكن وأجاب: «بالطبع!»

عندئذ أصابت رصاصة صخرة بجانبهم، فقفز دانكن. ووضع أنكس يده فوق فمه، مشيرًا له بأنه يجب أن يصمتوا. ثم أشار إلى شجرة بلوط، حيث يجلس أحد أعدائهم محاولًا الاختباء.

همس هوكاي: «تعال يا أنكس، علينا أن نسرع.»

نهض هوكاي وأنكس سريعًا وغادرا مكان الاختباء الآمن. وانضم إليهم تشينجاتشجوك، وانطلق ثلاثتهم نحو شجرة البلوط. واستمرت المعركة حتى سقط الرجل من فوق الشجرة.

بعد ذلك قال هوكاي: «أنكس، شق طريقك إلى الزورقين، نحن بحاجة إلى مزيد من البارود والمؤن.»

وهز هوكاي قرن البارود والجراب ليتأكد من أنهما فارغان بالفعل، وانطلق الموهيكان الشاب مبتعدًا. وبعد مرور ثوان سمع دانكن وهوكاي صوت صياحه؛ وهو

إشارة تحذير من خطر جديد. ركض دانكن وهوكاي أسفل التل ليريا ماذا يحدث. ودوت الطلقات من حولهم. لقد عاد المزيد من رجال ماجوا لمحاربتهم!

كانت كورا وأليس وديفيد قد اتجهوا نحو ضفة النهر أيضًا عندما سمعوا صيحة أنكس. رأوا زورقهم منجرفًا مع المياه، فقد عثر عليه أحد رجال الأعداء في مخبئه بين الشجيرات ودفعه في النهر.

صاح هوكاي: «فات الأوان! ضاع كل شيء؛ ضاع كل ما نملك من بارود وذخيرة.»

أطلق مرشد من رجال الهيرون صيحات النصر من الضفة الأخرى من النهر.

سأل دانكن: «ماذا يمكننا أن نفعل؟ ماذا سيكون مصيرنا؟»

ازداد الغضب على وجه هوكاي عندما سمع رجال الهيرون يسخرون منه عند الضفة الأخرى من النهر، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة.

قال ديفيد في إصرار: «من المؤكد أن وضعنا ليس ميئوسًا منه! لا يزال في إمكاننا القتال!»

أنزل تشينجاتشجوك فأسه ونزع ريشة النسر من رأسه في انكسار.

نظرت كورا إلى الرجال وقالت: «لماذا نموت كلنا؟ اهربوا إلى الغابة، هيا، نحن ندين لكم بالكثير بالفعل.»

أجاب هوكاي: «ونترككم هنا؟ لا يمكن أن نفعل ذلك، ثم إنه لا يوجد مخرج آمن من الغابة.»

فقالت كورا: «إذن اسبحوا في النهر، لماذا تبقون معنا وندعهم يقتلون أناسًا آخرين؟»

قال هوكاي في حدة: «ماذا سنخبر أباك يا كورا؟ ماذا سنقول له عندما يسألنا لماذا تركنا ابنتيه؟»

ردت كورا: «يجب أن تذهب إليه. أخبره أننا هنا، على وشك أن نتعرض للهجوم من قبل رجال الهيرون، وأننا هربنا إلى الغابات الشمالية. أخبره أن رجاله يمكنهم إنقاذنا إن أسرعوا.»

تحدث هوكاي إلى تشينجاتشجوك وأنكس. وأنصت تشينجاتشجوك جيدًا، وبعد لحظة لوح بيده وقال: «حسنًا.» ثم وضع فأسه في حزامه ووضع ريشة النسر في رأسه. أومأ تشينجاتشجوك لأنكس وهوكاي، ثم انطلق نحو حافة الصخور وقفز في الماء.

نظر هوكاي إلى كورا وقال: «أنت شجاعة للغاية. إذا وقعتم في أسرهم بالفعل قومي بكسر أغصان الشجر في طريقك، وهذا سيمكننا من العثور عليكم.»

ثم استدار وشق الطريق الذي شقه تشينجاتشجوك، لكن أنكس ظل معهم.

قال بالإنجليزية: «سأبقى معكم، ليس من الصواب أن نترككم تواجهون مصيركم.»

قالت كورا: «كلا، من فضلك اذهب وابحث عن أبي، فنحن في مخبأ آمن هنا، وسنمكث هنا حتى تعود.»

بدا أنكس تعيسًا لحظة، لكنه فعل بعد ذلك ما طلبته منه كورا. وقف هو الآخر على حافة الصخور وقفز في النهر. وبعد أن نظرت كورا إلى أنكس لمرة أخيرة استدارت إلى دانكن وقالت: «دانكن، أعلم أنك تجيد السباحة، لقد حان دورك الآن.»

رد دانكن قائلًا: «واجبي هو حمايتكما، كما أن …» ثم تلعثم وقال: «لا يمكنني أن أترك أليس خلفي.»

قالت كورا: «وقد أديت واجبك على أحسن وجه. نحن نريد منك الآن أن تذهب وتبحث عن أبي. أسوأ ما يمكنهم فعله هو أسرنا. إذا بقيت هنا فقد يقتلوننا. أنت تعلم أنني على حق! من فضلك يا دانكن، سأتكفل أنا بحماية أليس.»

لم ينطق دانكن بكلمة واحدة. نظر إلى أليس الجميلة ولم يرد أن يغادر: «هناك أشياء أسوأ من الوقوع في الأسر. لن أغادر وأترككما هنا.»

بعد أن غادر هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس وقف دانكن للحراسة خارج الكهوف، فيما اختبأت كورا وأليس بالداخل. لم يستطع دانكن سماع شيء سوى صوت جريان النهر. بدت الغابة خاوية حتى من الحيوانات. وبدت ضفاف النهر ساكنة. لم ير دانكن الأعداء من مسافة بعيدة أو يسمع أصواتهم، لكنه كان متأكدًا من وجودهم.

دخل دانكن الكهف ورأى ديفيد جالسًا بالقرب من المدخل فقال له: «لا أرى أي فرد من الهيرون، لكن علينا أن نبقى مختفين في الوقت الحالي.»

أجابه ديفيد: «رأسي يؤلمني بشدة، لكن حمدًا لله أنني نجوت.»

قال دانكن: «علينا أن نضع البطاطين. هل ستستطيع فعل ذلك؟ علينا بعد ذلك الذهاب إلى أليس وكورا؟»

بعد ذلك رفع الرجلان البطاطين وعلقاها كما فعل الموهيكان بالضبط. بذلك سيتمكنون من إشعال النيران دون أن يرى أحد ضوءًا من الخارج.

اتكأ ديفيد على دانكن أثناء عودتهما إلى الكهف. كانت هناك مجموعة من نبات الساسفراس في الكهف، رقد ديفيد في سرور فوقها، وغطى نفسه ببعض الأغطية ليدفئ جسده.

ونظر دانكن إلى كورا وقال: «ما دمنا على قيد الحياة فهناك أمل.» ثم نظر إلى أليس التي كانت تبكي.

جففت دموعها وقالت: «انظر، لقد هدأ روعي الآن يا دانكن. لا بد أننا في أمان في هذا المخبأ.»

جثا دانكن بجوارها وضغط على يدها وقال: «لا أشعر بخوف ومعي امرأتان شجاعتان مثلك أنت وكورا.» ثم اتجه نحو مقدمة الكهف للمراقبة.

عزف ديفيد لحنًا على صافرته الصغيرة وبدأ يغني.

همست كورا: «ألن يعرضنا الغناء للخطر؟»

أجابها دانكن: «سيغطي صوت الشلالات على صوته.»

واصل ديفيد الغناء، ونظرت إليه كورا وأليس بعينين حنونتين. حتى دانكن لم يستطع كبت ابتسامته. لكن تلك اللحظة السعيدة لم تدم طويلًا. ففجأة سمعوا صوت صيحة في الخارج.

همست أليس: «لقد وقعنا في يدهم! لقد انتهى أمرنا!»

قال دانكن: «لم ينته بعد، هذا الصوت قادم من الجزيرة. لا تزال الشلالات تحمينا.»

عم الصمت بين الجالسين في الكهف. وسرعان ما سمعوا صرخات وصيحات من جميع الاتجاهات. اقتربت إحدى الصيحات من مدخل الكهوف للغاية حتى إن دانكن ظن أنهم عثروا على مكانهم.

همس: «تعالوا، علينا أن ندخل إلى الكهف الأصغر بالخلف. أسرعوا.»

ساعدت الفتاتان ديفيد على النهوض وتحركوا بسرعة خلف مجموعة أخرى من البطاطين. لكن تحركهم لم يكن سريعًا جدًّا. لقد عثر رجال الهيرون على الكهف الأمامي، وقلبوا نباتات الساسفراس وأطلقوا صيحات السرور، لكنهم لم يروا المدخل الخلفي.

وعندما رحلوا تنهد دانكن وقال: «لقد رحلوا، نحن في أمان مرة أخرى. امكثوا هنا، سأذهب لأتحقق من الأمر.»

تبعته كورا، لكنهما ما كادا يخرجان من الكهف حتى رأت كورا شيئًا جعل وجهها يشحب؛ لقد رأت ماجوا!

رآه دانكن أيضًا، وأدرك أن عيني ماجوا لم تتكيفا على الرؤية في الكهف المظلم بعد، فأطلق دانكن رصاصة من مسدسه دون تفكير. ورآه ماجوا وأطلق صيحة عالية. وفي غضون ثوان امتلأ الكهف برجال قبيلة هيرون.

الفصل الثامن

رحلة شاقة

أحكم أفراد من الهيرون قبضتهم على دانكن وكورا وأليس وديفيد، فيما فتش باقي الرجال الكهف.

سأل دانكن ماجوا: «عما يبحثون؟»

أجابه: «إنهم يبحثون عن «البندقية الطويلة»؛ الذي تنادونه بهوكاي. هو والرجلان اللذان يتنقلان معه أعداء قبيلتنا.»

قال دانكن: «لقد رحل.»

سأله ماجوا: «أين جثته؟ أين يمكننا أن نعثر على جثته؟»

أجاب دانكن: «إنه لم يمت؛ لقد هرب.»

قال ماجوا: «ورفيقاه أيضًا؟»

رد دانكن: «أجل، سبحوا في النهر. لن تجدهم.»

استدار ماجوا وشرح لرجاله ما حدث مع هوكاي ورفيقيه من الموهيكان. أسرع بعضهم إلى النهر ليتأكدوا بأنفسهم، وآخرون ضربوا جدران الكهف في غضب.

وسرعان ما اقتيد الأسرى الأربعة خارج الكهف ومنه إلى النهر. دفعهم الرجال إلى الزوارق وعبروا النهر. وعندما رسوا امتطى بعض من رجال قبيلة الهيرون خيولهم، وانطلقوا للبحث عن هوكاي ورفيقيه. أما كورا وأليس وديفيد ودانكن فظلوا مع ماجوا.

ظن دانكن أنهم سيأخذونهم إلى مونتكالم مباشرة، وتحرك ببطء نحو ماجوا للتحدث معه وعرض عليه المال في مقابل أن يأخذهم إلى حصن فورت ويليام هنري.

قال ماجوا: «اصمت، لا تتحدث إلا إذا طلبنا منك ذلك.»

دفع ماجوا ورجاله كورا وأليس فوق حصانين، وسار دانكن بجانبهما مع تحرك الجميع. واضطر ديفيد المسكين إلى السير أيضًا، على الرغم من أن رأسه كانت لا تزال تؤلمه.

سار الجميع في الاتجاه المعاكس لحصن فورت ويليام هنري. سلكوا مسارات مختلفة متعرجة، وأدرك دانكن أن المقصود من هذا إرباكهم بحيث لا يتمكنون من الوصول إلى موقع معسكر ماجوا وحدهم. قطعوا مسافة طويلة دون ظهور بصيص أمل للتوقف.

تذكرت كورا ما أخبرها به هوكاي؛ أن تكسر غصنًا متى استطاعت ذلك. مدت ذراعها النحيل وكسرت غصن شجرة كان في متناول يدها. كان من الصعب فعل ذلك في ظل مراقبة رجال ماجوا لكل تحركاتها، لكن عندما رأت الفرصة سانحة تمكنت من إسقاط قفازها وكسر غصن كبير.

صاح ماجوا: «مهلًا، رأيت ذلك!»

وسريعًا اتجه بحصانه إلى الفتاتين، وترجل من فوق حصانه والتقط القفاز وقال: «كفاك حيلًا أخرى كهذه، ولا تكسري أغصانًا أخرى.»

طلب ماجوا من أحد رجاله السير في طريق خاطئ وقطع المزيد من أغصان الشجر.

استمرت الرحلة طوال اليوم بين أشجار الصنوبر والممرات غير الممهدة وعبر جداول المياه والأنهار الصغيرة. تحرك ماجوا فوق حصانه في أدغال الغابة في سرعة وثقة من وجهته.

وأخيرًا وصلوا إلى مرج، ولوح بيده لكورا وأليس لتترجلا من فوق الحصان. صعدوا فوق تل كبير، وعندما وصلوا إلى قمته كانت القمة مستوية ومكسوة بالأشجار. ارتمى ماجوا على الأرض ليستريح وأمر باقي المجموعة بفعل ذلك.

كان التل مكانًا مثاليًّا للاستراحة، فقد كان مرتفعًا بدرجة تجعل من المستحيل أن يأتي شخص لإنقاذهم دون أن يراه ماجوا أولًا.

قرر دانكن أن يحاول التحدث مرة أخرى مع ماجوا: «ألا ترى النفع الذي سيعود عليك إذا أعدت الفتاتين إلى والدهما؟ سيكافئك بسخاء.»

قال ماجوا: «القائد أشيب الشعر رجل صعب المراس. إنه قاس حتى مع جنوده. عيناه صارمتان جامدتان.»

قال دانكن: «صحيح إنه قائد قوي، لكنه يحب كورا وأليس.»

ارتسم على وجه ماجوا تعبير غريب، لم يستطع دانكن تفسيره.

قال ماجوا: «أخبر الفتاة ذات الشعر الداكن أنني أريد التحدث معها.»

لم يكن دانكن راغبًا في استدعاء كورا، لكنه فعل ما طلبه ماجوا على أي حال. وأثناء توجهه معها إلى ماجوا همس إليها: «اعرضي عليه المبلغ الذي قد يقدمه أبوك مقابل تحريرنا. هذا قد ينقذ حياتنا.»

أومأت كورا موافقة، فقد أدركت أنهم في خطر كبير.

نظر ماجوا إلى دانكن وقال: «ارحل أنت.»

لم يتحرك دانكن، فقالت له كورا: «لا بأس، اذهب من فضلك وتأكد أن أليس على ما يرام.»

وعلى الرغم من أنها كانت تشعر بالخوف، استدارت نحو ماجوا وقالت: «ماذا لديك لتقوله لابنة الجنرال مونرو؟»

أخبرها ماجوا بقصة. قال لها إنه خاض مع أبيها حربًا، لكنه عصى أوامر الجنرال، فعاقبه. وأن الجنرال مونرو جرح مشاعره للغاية وسخر منه أمام باقي الرجال. وأخبرها أنه أسرها هي وشقيقتها للانتقام من أبيهما. وأنه ينوي الإبقاء على واحدة منهما معه للأبد!

قالت كورا: «من الأفضل حتمًا أن تأخذ الذهب من مونرو بدلًا من أن تأخذ ابنتيه وتحتفظ بهما هنا للانتقام منه.»

لكن ماجوا اكتفى بالضحك وهو يمضي مبتعدًا.

فجأة أمسك رجلان قويان بدانكن، وأمسك اثنان آخران بديفيد. حاول ديفيد ودانكن مقاومتهم والإفلات منهم، لكن رجال ماجوا كانوا أقوياء وقيدوهما إلى شجرة. وقيدوا أيضًا كورا وأليس، بكت أليس وهي تنظر إلى دانكن، تستنجد به لمساعدتها، لكنها أدركت أن هذا مستحيل. ضايق الرجال الفتاتين وسخروا منهما، ووكزوهما بأغصان الأشجار وراحوا يضحكون.

وألقى أحد الرجال بفأس تجاه رأس أليس، وكاد أن يصيبها، وقطع خصلة من شعرها، فاستشاط دانكن غضبًا حتى إنه تحرر من قيوده وركض تجاه الرجل الذي ألقى بالفأس. تعاركا معًا، وعندما اقتربت سكين الرجل من صدر دانكن للغاية سمع دانكن صوت أزيز وفرقعة من خلفه.

اندفع هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك من الغابة وقتلوا الرجل الذي كان يتعارك مع دانكن، وراح رجال الهيرون يصيحون ويصرخون مصدومين لمقتل واحد منهم.

دارت معركة عنيفة، وتشابك الفريقان بالأيدي. قاتل دانكن مع هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك.

نجت كورا من موت محقق عندما مرت فأس بجانبها واحتكت بكتفها، وقطعت الحبال التي تقيدها بالشجرة، فأسرعت لتحرر أليس. جذبت كورا الحبال التي تقيد شقيقتها بكل قوتها، لكنها لم تتمكن من حلها، فجثت على ركبتيها بجانب شقيقتها.

قُتل كل رجال ماجوا فيما عدا ماجوا نفسه، فقد كان يقاتل تشينجاتشجوك، وتدحرجا نحو الحافة العليا من التل. دفع تشينجاتشجوك ماجوا من فوق التل، بآخر ما تبقى لديه من قوة.

هرع أنكس ودانكن إلى الفتاتين وحررا أليس، التي ارتمت بين ذراعي كورا.

كان هوكاي لا يزال يهلل فرحًا بالنصر عندما لاحظوا أن ماجوا لم يمت، وأنه يتجه مسرعًا بعيدًا عن التل وهربًا من رجلي الموهيكان. بدأ أنكس وتشينجاتشجوك في الركض خلفه.

صاح هوكاي: «كلا! إنه رجل واحد أعزل، ماذا يمكنه أن يفعل؟»

وعلى الرغم من عدم رغبة تشينجاتشجوك وأنكس في السماح لماجوا بالرحيل، فقد أدركا أن هوكاي محق، فتوقفا عن مطاردته وعادا إلى المجموعة.

صاحت أليس في سعادة: «نحن طلقاء! ودانكن العزيز لم يمسه أذى.»

وفجأة أدركوا أن ديفيد لا يزال مقيدًا. حرره هوكاي، وساعد دانكن وأنكس الفتاتين على النهوض. ثم شقوا طريقهم عبر التل إلى حيث تقف خيول ماجوا لتأكل.

امتطت كورا وأليس حصانين فيما سار باقي الأفراد على أقدامهم. وسرعان ما عبروا النهير الصغير ووصلوا إلى واد صغير يظلله شجر الدردار. وهناك مرروا قارورة مياه عليهم وأعدوا بعض الطعام.

وبعد أن جلس الجميع، سأل دانكن: «كيف عثرتم علينا؟ وكيف أنقذتمونا دون مساعدة الجنود؟»

ضحك هوكاي وقال: «إذا انتظرنا مجيء الجنود ما استطعنا إنقاذكم. لقد اختبأنا بجانب النهر وراقبنا رجال الهيرون.»

قال دانكن: «إذن رأيتم كل شيء.»

أجاب هوكاي: «ليس كل شيء، كنا مختبئين، لكننا سمعنا كل شيء، تتبعناكم من خلال اقتفاء آثار أقدام الخيول.»

ثم أردف: «كان من الصعب منع أنكس من الاندفاع لإنقاذكم. كان علينا انتظار اللحظة المناسبة، حتى أدركنا أن لدينا فرصة مباغتتهم.»

تحدث هوكاي وهو يمرر قارورة المياه إلى دانكن، الذي أخذ رشفة كبيرة منها. وعندما انتهوا من تناول الطعام قال هوكاي: حان وقت الرحيل. ألقت كورا وأليس نظرة أخيرة على ينبوع الماء الجميل ثم امتطتا جواديهما. وتحركت المجموعة كلها بسرعة تجاه الشمال عبر ممر ضيق.

الفصل التاسع

أشباح في الغابة

حرص هوكاي على إخفاء آثار أقدامهم كي يصعب على ماجوا العثور عليهم. وبعد أن استمروا في السير لمدة طويلة، أزاح هوكاي بعض فروع الأشجار الضخمة جانبًا، وشق بينها طريقًا بين شجيرات الورد البري. ثم قادهم إلى كوخ عتيق، بدون سقف تقريبًا، لكن جدرانه كانت سليمة. ترجلت كورا وأليس على مضض من فوق الحصانين، خائفتين من دخول ذلك المكان المتهالك.

سأل دانكن: «ألن يكون من الأفضل أن نختبئ في الغابة؟»

أجابه هوكاي: «لا يعرف هذا الكوخ سوى القليل. نحن في أمان هنا.» ثم أخبر المجموعة عن معركة طاحنة دارت في هذا المكان منذ سنوات مضت.

عندما سمعت كورا وأليس القصة خشيتا أن تجلسا في مكان دارت فيه تلك المعركة، لكن هوكاي طمأنهما بأنه ليس هناك خوف من أن تضايقهما الأشباح!

بدأ تشينجاتشجوك وأنكس وهوكاي في العمل؛ صنعوا سريرين لكورا وأليس من الحشائش وأوراق الشجر، وغطوا السقف بأوراق شجر الكستناء. وسرعان ما استغرقت الفتاتان في نوم عميق في ركن صغير من الكوخ العتيق.

جلس دانكن بجوارهما على أتم استعداد، لكن هوكاي قال له: «استرح قليلًا، دع تشينجاتشجوك يحرسنا هذه الليلة.»

رفض دانكن في البداية، لكن هوكاي أصر. وسرعان ما استغرق الجميع في النوم عدا تشينجاتشجوك. جلس تشينجاتشجوك منتصبًا في سكون تام. رأى وسمع كل شيء: أصوات البوم والطيور الليلية وكل الكائنات الصغيرة التي تسير في أراضي الغابات.

وأخيرًا، هز تشينجاتشجوك كتف دانكن وقال بصوت خافت: «حان وقت الذهاب.»

أومأ دانكن برأسه قائلًا: «سأوقظ كورا وأليس وديفيد.»

قالت أليس بلطف: «لقد استيقظنا بالفعل، ونحن مستعدون للرحيل.»

قال دانكن: «لم أكن أرغب في النوم بعد أن ورطتكما في هذا الخطر الكبير. تعهدت بألا أرتاح حقًّا حتى تكونا في أمان.»

ابتسمت أليس وقالت: «إنك رجل نبيل يا دانكن، شكرًا لك.»

قال هوكاي: «صمتًا! لقد سمع تشينجاتشجوك وأنكس صوت شيء ما.»

زحف دانكن للأمام مع هوكاي لرؤية ما يحدث.

قال هوكاي: «أرى آثار أقدام رجل! إنه ماجوا! لا بد أنه اقتفى آثارنا.»

أمر هوكاي دانكن بوضع الخيول في الكوخ العتيق، فقد يضطرون أن يحتموا به.

وفي غضون دقائق كان الجميع منحنيًا داخل مكان الاختباء. سمعوا أصواتًا بالخارج. حدق دانكن وهوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس من خلال الشقوق الموجودة بجدران الكوخ ورأوا عشرين رجلًا من الهيرون يقفون في المكان يتحدثون. خشخشت فروع الأشجار مع تحركهم حول الكوخ.

وقبل أن يقتحم رجال الهيرون الكوخ مباشرة، توقفوا فجأة؛ فقد رأوا آثار المعركة السابقة! كان هناك آثار ضرب فئوس الهنود الحمر على الأشجار وأسهم مكسورة، وآثار طلقات نارية على الأرض. أصاب ماجوا ورجاله الذعر لما رأوه وتراجعوا على الفور.

وبعد فترة وجيزة لم يكن هناك سوى صوت أقدامهم وهي تبتعد عن الكوخ. انتظر هوكاي حتى أصبح المكان آمنًا ثم قاد المجموعة إلى الخارج.

لم ينطق أحد بكلمة واحدة أثناء هروبهم. وفي النهاية وصلوا إلى نهير صغير، وخلع هوكاي حذاءه وأشار لدانكن وديفيد أن يفعلا مثله. ثم نزلوا إلى النهير وساروا به، وبذا لم يخلفوا وراءهم أي أثر لتتبعه. قادوا الفتاتين وهما فوق حصانيهما في هدوء في الماء، وأخفوا آثار أقدامهم عندما عادوا إلى اليابسة.

قادهم الطريق الذي سلكوه إلى الجبال، فتوقف هوكاي وقال: «قد يكون خلف هذه الجبال جيش كامل من الجنود، لو أن الجيش الفرنسي تحرك كما أظن أنه فعل.»

سأله دانكن: «هل نحن على مقربة من حصن فورت ويليام هنري؟»

أجاب هوكاي: «لا نزال نبعد عن الحصن مسافة طويلة ومرهقة.»

قال دانكن: «علينا الإسراع. أظن أن المعركة بين الفرنسيين والإنجليز باتت وشيكة، ستدور رحاها حول الحصن من كل اتجاه.»

قال هوكاي: «إذن لا يمكننا أن نسير في هذا الطريق، لا نريد أن نسير وسط المعركة. علينا أن نشق طريقنا بين الجبال ونخرج من الجهة الأخرى.»

أومأ دانكن برأسه موافقًا، وسرعان ما شرعت المجموعة في رحلتها. تحركوا ببطء، وكان الجو مظلمًا والطريق وعرًا. ساروا في طريق ملتو عبر التلال، وأخيرًا شق ضوء النهار الظلام.

أمسك هوكاي بلجام الحصانين وساعد كورا وأليس على النزول. ثم أطلق سراح الحصانين، وأخبرهما أن يحافظا على سلامتهما ويأكلا جيدًا.

سأله دانكن: «ألن نحتاج إليهما مرة أخرى؟»

قال هوكاي: «انظر بنفسك، نستطيع رؤية معسكر مونتكالم من هنا.»

كانوا يقفون على تل مرتفع بمقدار ألف قدم عن المعسكر. تمكنوا من رؤية حصن فورت ويليام هنري من بعيد. وكان حول الحصن نيران أشعلها جنود مونتكالم، وخيام بيضاء، وإمدادات عسكرية. قال هوكاي: «الغابة تعج بالهنود الحمر الموالين لمونتكالم. قد يكون الأوان قد فات للذهاب إلى الحصن في أمان. سيأسروننا حتمًا.»

قالت كورا: «لكن علينا المحاولة على الأقل. يجب أن نصل إلى حصن فورت ويليام هنري.»

أومأ هوكاي قائلًا: «يمكننا استغلال الضباب ليحجبنا عن الرؤية، لكن علينا إسراع الخطى!»

تحركت المجموعة سريعًا نزولًا من فوق الجبل الذي استغرق منهم وقتًا طويلًا لتسلقه. وصلوا إلى مرج وشرعوا في رحلتهم، لكن هوكاي رأى أنهم قد يتعرضون لخطر كبير لو استمروا في السير. وفي النهاية أقنعه دانكن أنه لا بد أن يواصلوا التحرك.

قال هوكاي: «ابقوا متقاربين كي لا تضلوا الطريق وسط الضباب.»

في تلك اللحظة سمعوا صوت طلقة مدفعية عنيفة من جهة حصن فورت ويليام هنري. واهتزت الأرض تحت أقدامهم. أشار أنكس إلى الجهة القادم منها الصوت، وتحدث مع هوكاي دقيقة.

قال هوكاي: «أنكس لديه فكرة، لقد صنع المدفع الإنجليزي أخدودًا بالأرض. وهو عميق بما يكفي لنختبئ به، وسوف يقودنا مباشرة إلى الحصن. أسرعوا، انزلوا به والضباب لا يزال كثيفًا.»

ضغط دانكن على يد أليس أثناء انحنائهما وزحفهما في الممر الجديد.

أخفى الدخان المنبعث من المعركة المجموعة أثناء تحركها ببطء نحو الحصن. لكن لم يمض وقت طويل حتى تبدد الدخان. كانوا لا يزالوا يبعدون عن الأبواب الخشبية للحصن عدة ياردات، عندما انقشع الضباب وأصبحت رؤيتهم سهلة.

وبعد أن مر وقت كالدهر عليهم وصلوا في النهاية إلى البوابة الأمامية

طرقت أليس الباب: «أدخلونا! نحن أليس وكورا مونرو. أدخلونا!»

انفتح باب الحصن فاندفعوا إلى الداخل. واندفع الأب أشيب الشعر عريض المنكبين نحو ابنتيه.

قال الجنرال مونرو: «لقد وصلتما سالمتين! آه يا فتاتيّ، كم أنا سعيد لرؤيتكما!»

الفصل العاشر

اندلاع المعركة

كان جنود حصن فورت ويليام هنري جسورين، لكنهم كانوا في ورطة أيضًا؛ فجيش مونتكالم يحاصرهم من كل اتجاه: في الغابات، وحول المعسكر، وقرب النهر. كان الجنرال مونرو قد أرسل خطابًا إلى ويب وجنود حصن فورت إدوارد يطلب إرسال تعزيزات عسكرية، لكن تلك التعزيزات لم تصل بعد. خشي الجنرال من أن يكون الأسوأ قد حدث، لا سيما بعد أن علم أن القوات أُرسلت بالفعل لمواجهة مونتكالم في نفس الوقت الذي غادرت فيه كورا وأليس. كان من الممكن أن يحدث لهم أي شيء.

كان دانكن يحارب منذ أربعة أيام. والآن وقف فوق برج مراقبة بجانب البحيرة. توقف إطلاق النار مؤقتًا وكان كلا الجانبين في هدنة. نظر دانكن عبر النهر ورأى ضابطًا فرنسيًّا يقود هوكاي إلى الحصن. وكان من الواضح أن هوكاي مبتئس بعد أن قُبض عليه.

وأثناء نزول دانكن من فوق برج المراقبة، رأى كورا وأليس. بدتا سعيدتين ومستريحتين؛ أفضل حالًا كثيرًا من آخر مرة رآهما فيها!

قالت أليس: «دانكن، كنا في انتظارك! لماذا لم تأت لزيارتنا؟»

احمرت وجنتا دانكن خجلًا عندما تحدثت أليس إليه مباشرة. لم يكن رآها منذ بضعة أيام، كانت جميلة كعادتها دومًا. تلعثم في الكلام دقيقة حتى أنقذته كورا.

قالت كورا: «إنها تقصد أن تشكرك على كل ما فعلته من أجلنا، وأبونا أيضًا يود كثيرًا أن يشكرك!»

قال دانكن: «أنا في طريقي للذهاب لوالدكما، لأعرف موقعي الجديد. لكنني سعدت برؤيتكما. تبدين في حالة جيدة يا أليس.»

ثم ابتسم دانكن ولوح لهما بيديه وهو يبتعد.

كان الجنرال مونرو في انتظار دانكن عندما وصل.

قال مونرو: «آه يا دانكن، كنت على وشك استدعائك. أرى أن الفرنسيين قبضوا على المرشد. ماذا كان اسمه؟ هوكاي؟»

قال دانكن: «أجل، وقد رأيت ذلك يا سيدي.»

قال مونرو: «أعاد مونتكالم هوكاي إلينا مرة أخرى، لكنه احتفظ بالخطاب الذي كان يحمله هوكاي.»

سأل دانكن: «أي خطاب يا سيدي؟»

أجابه مونرو: «بعد أن أعادكم هوكاي إلى هنا بمهارته الشديدة، أرسلته بخطاب إلى الجنرال ويب. وكان هوكاي في طريق عودته إلينا حاملًا رد الجنرال ويب. لكن مونتكالم لديه الرد الآن، وهذا يعني أنه يعلم ماذا حدث لجنود حصن فورت إدوارد.»

قال دانكن: «نحن في ورطة يا سيدي إذا لم يحضر جنود حصن فورت إدوارد.»

وافقه مونرو قائلًا: «أجل، من المؤكد أننا في ورطة. عرض علي مونتكالم التفاوض، وسأرسلك بدلًا مني. أريد منك أن تعرف المعلومات التي لديه.»

أومأ دانكن قائلًا: «مفهوم يا سيدي، ولن أخذلك.»

تحدث دانكن والجنرال مونرو مدة طويلة عن مقابلته المرتقبة مع مونتكالم. وأخيرًا غادر دانكن الحصن.

حمل دانكن معه علمًا أبيض إشارة للسلام، حتى يمر داخل ساحة المعركة دون أن يصيبه أذى.

دخل دانكن خيمة القائد مونتكالم ورأى ماجوا يجلس هناك. أخذ نفسًا عميقًا ثم وقف شامخًا، تمامًا كما يليق بجندي.

كان مونتكالم رجلًا قويًّا ذا مظهر نبيل، وقال لدانكن: «كنت أنتظر حضور جنرال مونرو، لكن أرى أنك أيضًا ضابط.»

انحنى دانكن تحية وأوضح أن معه تصريحًا للتحدث باسم الجنرال مونرو. تحدث دانكن ومونتكالم فترة من الوقت عن المعركة.

وفي النهاية سأله الجنرال: «هل ستستسلمون؟»

أجابه دانكن: «هل وجدت جيشنا سهل الهزيمة للغاية في الخمسة أيام الماضية؟ أثق أن الاستسلام ليس ضروريًّا.»

أومأ مونتكالم برأسه لماجوا وقال: «سيحارب طويلًا وبقوة.»

ارتجف جسد دانكن حين تذكر كل ما مر به كي يصل إلى حصن فورت ويليام هنري.

وسأله مونتكالم مرة أخرى: «إذن هل ستستسلمون؟»

أجابه دانكن: «للأسف يا سيدي، لن نستسلم. وإذا لم تسلمنا الخطاب الموجه لجنرال مونرو فلن تترك لنا خيارًا آخر سوى مواصلة القتال.»

قال القائد مونتكالم: «أتفهم موقفك، لكنني أود سماع ذلك من جنرال مونرو نفسه.»

أومأ دانكن وغادر خيمة مونتكالم. شق طريقه سريعًا إلى حصن فورت ويليام هنري وهو رافع العلم الأبيض.

عندما عاد إلى الحصن، اتجه دانكن مباشرة إلى منزل الجنرال مونرو. كانت كورا وأليس هناك وسعدتا برؤيته.

قال الجنرال مونرو: «ها قد عدت يا دانكن.»

قالت كورا وهي تنهض: «تعالي يا أليس، لنذهب إلى الغرفة الأخرى.»

أومأ دانكن تحية لهما أثناء مغادرتهما الغرفة، ثم وقف عند مدخل الباب، منتظرًا أن يبدأ مونرو الحديث. وقف الجنرال وتجول في الغرفة. وعندما تحدث في النهاية، لم يسأل دانكن عن اجتماعه بمونتكالم، لكن قال بدلًا من ذلك: «إنهما فتاتان رائعتان، أعلم أنك أردت الحديث معي عنهما، والفرصة أمامك الآن.»

قال دانكن: «لكن ماذا عن رسالة مونتكالم يا سيدي؟»

رد مونرو قائلًا: «ستأتي القوات يا مونتكالم، تفاءل. لا أريد أن أعرف الآن ماذا قال ذلك الوغد. لا يزال أمامنا الوقت، جنودنا أقوياء. والآن، ماذا لديك لتقوله فيما يتعلق بابنتي؟»

تلعثم دانكن وقال: «أنا ... أنا ... يجب ...»

قاطعه مونرو قائلًا: «حسنًا، تحدث.»

قال دانكن: «يشرفني أن أطلب يد أليس للزواج يا سيدي.»

قال جنرال مونرو وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا: «أليس! ظننت أنك تود الزواج من كورا، فهي الأكبر سنًّا.»

لم ينطق دانكن بكلمة أخرى.

قال الجنرال مونرو في النهاية: «أجل، أوافق بالطبع. سأسعد بأن تكون ابنًا لي!»

ابتسم دانكن وقال: «شكرًا لك يا سيدي. هذا خبر سار بالتأكيد.»

سأله مونرو: «والآن، ماذا أخبرك مونتكالم؟»

أخبر دانكن الجنرال مونرو بكل شيء حدث في اجتماعه مع مونتكالم.

قال الجنرال مونرو: «لا يزال يرغب في مقابلتي شخصيًّا، حتى بعد أن أخبرته بأننا لن نستسلم؟»

أجابه دانكن: «أجل.»

قال الجنرال: «إذن علينا الذهاب. ابعث رسولًا يخبرهم بمجيئنا. لا بد أن نحضر معنا المزيد من الحراس، تحسبًا لأن تكون خدعة.»

قال دانكن: «عُلم يا سيدي.» ثم انطلق للتحضير لمقابلة أخرى مع مونتكالم.

سرعان ما شق دانكن والجنرال مونرو طريقهما خارج الحصن. وقرع الجنود الطبول إعلانًا عن مغادرة الجنرال، فردت عليهم طبول مونتكالم.

وفي النهاية وقف الرجلان وجهًا لوجه، وتطلع أحدهما إلى الآخر من أعلى إلى أسفل، ثم كسر مونتكالم حالة الصمت.

قال مونتكالم: «يسعدني يا جنرال مونرو أنك وافقت على مقابلتي. لسنا بحاجة إلى وجود حرس. أنت في أمان هنا. سآذن لحراسي بالانصراف إذا أذنت لحراسك بذلك.»

كان يقف خلف مونتكالم صفوف من رجال ماجوا. وأومأ الجنرال مونرو موافقة وهمس إلى دانكن، الذي استدار وقال: «أيها الحراس، انصرفوا!»

خرج الحراس سريعًا كما أمرهم دانكن، وتراجع ماجوا ورجاله أيضًا. وأشار مونرو لدانكن ليقف بجانبه.

استدار مونتكالم إلى الجنرال مونرو وقال: «لقد فعلت ما باستطاعتك من أجل بريطانيا، والآن حان وقت التفكير بعقلانية.»

لم ينطق الجنرال مونرو بكلمة واحدة، وسمح للجنرال الفرنسي بالاستطراد في حديثه: «هل تود أن ترى معسكرنا؟ لدينا الكثير من الجنود الأوفياء؟»

رفض الجنرال مونرو دعوة مونتكالم وأخبره أن الإنجليز لديهم نفس العدد من الجنود ممن لديهم الاستعداد لخوض المعركة.

قال الجنرال مونرو: «إذا نظرت تجاه نهر هادسون فسترى على الأرجح الجنرال ويب ورجاله هذا اليوم.»

ابتسم مونتكالم ابتسامة خبيثة ثم قال: «ها هو الخطاب الذي أخذناه من مرشدكم. قد ترغب في قراءته قبل أن تتخذ أي قرار.»

كتب الجنرال ويب في الخطاب أن الاستسلام هو الحل الوحيد أمامهم! وأنه لا يستطيع توفير جندي واحد لمساعدتهم، فقد قُتل الكثير من جنوده بالفعل في المعركة ضد الفرنسيين، بما في ذلك الجنود الذين أرسلهم في وقت سابق لحصن فورت ويليام هنري، وأنه إذا أرسل جنودًا آخرين لنجدة مونرو فقد يؤدي هذا إلى سقوط حصن فورت إدوارد نفسه. وبعبارة أخرى، رفض ويب طلب مونرو بصورة لائقة في الخطاب، لذا لم يبق أمامهم سوى قَبول ما يريده جنرال مونتكالم والإسراع في الاستسلام. وسيخوض الجنرال ويب المعركة من حصن فورت إدوارد بقدر ما يستطيع، أما حصن فورت ويليام هنري فقد ضاع بالفعل.

شحب وجه الجنرال مونرو وهو يهمس إلى دانكن: «لقد خاننا ويب! لن يرسل جنودًا إلينا، لم أر مثل ذلك الفعل الجبان من قبل.»

همس دانكن: «لا يزال الحصن في قبضتنا. لا يزال بمقدورنا القتال.»

قال مونرو: «أنت على حق. شكرًا لك على تذكيري بواجبي. سنقاتل حتى النهاية.»

تقدم مونتكالم نحوهما قائلًا: «قبل أن تقول أي شيء، هل من الممكن أن تسمع لشروطي أولًا؟»

صاح مونرو: «ماذا تقول؟ هل تود إخافتي بكلماتك؟ إن المعركة لن تنتهي لأنك أخذت ورقة من مرشد!»

همس دانكن إلى الجنرال مرة أخرى، فهدأ بدرجة كافية ليقول: «معذرة أيها القائد مونتكالم. أجل سنسمعك.»

قال مونتكالم: «لا بد أن يدمر الحصن وسندمره، لكننا سنؤمن لك ولجنودك رحيلًا آمنًا إلى إنجلترا. أما الخيار الوحيد الآخر فهو أن يموت كل رجالك، لأننا أشد قوة وأفضل استعدادًا لخوض معركة طويلة. هل تود رؤية القتال عند باب الحصن؟ أليس من الأفضل الاستسلام الآن بموجب هذه الشروط، وأن تعود إلى إنجلترا لتنقل ما حدث لملكك؟ إليك المعاهدة لتوقعها يا جنرال مونرو.»

نكس الجنرال رأسه والحزن يعتصر قلبه وقال: «حسنًا يا جنرال مونتكالم، سنوافق على شروطك ونسلم حصن فورت ويليام هنري.»

والتفت مونرو إلى دانكن وقال: «لم أتخيل أبدًا طيلة حياتي أن أقابل رجلًا فرنسيًّا جديرًا بالاحترام هكذا. ولم أتخيل أيضًا أن يرفض جنرال إنجليزي أن يأتي لمساعدتي.»

بتلك الكلمات الحزينة وقع مونرو على المعاهدة الموجودة أمامه ثم عاد إلى الحصن.

مكث دانكن ليستمع إلى الشروط المفصلة للمعاهدة، ثم عاد في المساء، وقد أذيع خبر أن الجنرال مونرو وقع على المعاهدة، وتحدد موعد مغادرة الحصن صباح اليوم التالي.

الفصل الحادي عشر

الوقوع في الأسر

في صباح اليوم التالي اصطف جنود حصن فورت ويليام هنري خارج أسوار الحصن ليسيروا تجاه سفنهم. كان النساء والأطفال يركضون جيئة وذهابًا، يحزمون ما يستطيعون حمله من أغراض. ووقف مونرو صامتًا بقلب منكسر.

رآه دانكن، فاتجه نحوه وقال: «كيف يمكنني المساعدة يا سيدي؟»

أجابه الجنرال قائلًا: «ابنتاي!»

سأل دانكن: «هل رتبت الأمور لهما؟»

أجاب مونرو: «اليوم أنا لست سوى جندي، وكل هؤلاء الرجال أبنائي. من الصعب عليّ أن أهتم بكورا وأليس أيضًا. هلا ساعدتهما يا دانكن؟ أعلم أنه يمكنني ائتمانك على حياتهما، لا سيما الآن بعد أن أوشكت على الزواج بأليس.»

ركض دانكن إلى المنزل فوجد كورا وأليس جاهزتين للرحيل. كانت كوار شاحبة الوجه، لكنها كبتت دموعها، أما أليس فلم تستطع ذلك.

قالت كورا: «لقد ضاع الحصن، ماذا سيحدث لكل هؤلاء الناس؟»

قال دانكن: «كورا، يجب أن تفكري في نفسك وأليس الآن. والدك سيهتم بالجنود. من فضلك، يجب أن تحافظي على سلامتك.»

جففت دموعها بمنديلها وقالت: «سنكون بخير. لن يقدم أحد على إلحاق الأذى بابنتي الجنرال. أضف إلى ذلك أن ديفيد معنا.»

استدار دانكن إلى العازف وقال: «ديفيد، سعدت برؤيتك. عليك أن تكون حذرًا للغاية، فنحن لا نزال في خطر. أستطيع سماع رجال الهيرون وهم يدقون طبول الحرب من مسافة بعيدة. فعلى الرغم من أن مونتكالم وقع المعاهدة، فماجوا ورجاله لا يزالون يصرون على القتال.»

أومأ ديفيد وقال: «سأكون على أتم استعداد. لا تقلق يا دانكن، الفتاتان في أمان معي.»

نفخ الجنود في الأبواق معلنين وقت الرحيل. وكان الحراس الفرنسيون يتخذون مواقعهم بالفعل، ورفرفت الأعلام الفرنسية فوق الحصن.

قالت كورا لأليس: «هيا بنا، لم يعد لنا مكان هنا.»

اصطفت الفتاتان وإحداهما ممسكة يد الأخرى بقوة.

كان ماجوا ورجاله مختبئين في الغابة. راقبوا الرجال والنساء أثناء خروجهم من الحصن. وفي اللحظة المناسبة، أطلق ماجوا صيحة مجلجلة وانقض عليهم. بذل جنود مونرو ما بوسعهم لصد الهجوم، لكن كان هناك الكثير من أفراد قبيلة الهيرون. تجمدت كورا وأليس مكانهما، فقد اجتاحهما الذعر حتى إنهما لم تستطيعا الحراك. وركض الجنرال مونرو بفرسه سريعًا بعيدًا عن ابنتيه ليبحث عن مونتكالم ويجبره على احترام وعده فيما يتعلق بإنهاء الحرب.

وقف ديفيد أمام الفتاتين. لم يدر ماذا ينبغي له أن يفعل، فبدأ يغني. رأى رجال ماجوا أن هذا الأمر غريب للغاية فتوقفوا فجأة.

لكن عندما رأى ماجوا أن ديفيد يحمي ابنتي مونرو، ركض نحوه.

قال بخشونة: «تعاليا معي وستنجوان بحياتكما.»

أجابته كورا: «محال!»

لم يرد ماجوا، بل أمسك أليس من ذراعها، ففقدت وعيها، وانطلق بها بعيدًا.

صاحت كورا: «كلا!» وركضت خلفه وهي تصرخ: «اتركها! اتركها!»

طاردت كورا ماجوا عبر الغابة حتى وصلوا إلى مرج يوجد به خيوله. وضع ماجوا أليس فوق حصان ثم أشار إلى كورا، فامتطت الحصان وأمسكت بشقيقتها جيدًا. أما ديفيد، الذي ركض وراء كورا كل هذه المسافة، فقد امتطى الحصان الآخر.

صاح ماجوا في ديفيد: «ماذا تفعل؟»

قال: «لن أسمح لك أن تأخذهما. إن اختطفتهما فخذني معهما.»

قال ماجوا: «هل تعي أنك بذلك أسيري؟»

أجابه: «أجل.»

أومأ ماجوا برأسه ثم قادهم إلى الغابة.

شق خمسة رجال طريقهم في أرض المعركة بينما تصاعد الدخان من أنقاض الحصن. كان مونرو ودانكن يبحثان عن أليس وكورا، وكان هناك أيضًا هوكاي ورفيقاه من الموهيكان. كان هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس يراقبون المشهد من الغابة، وحضروا حالما رأوا الدمار الذي تسبب فيه ماجوا ورجاله.

في النهاية نادى أنكس عليهم بعد أن وجد وشاح كورا. تفحص هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس عن كثب الجزء الذي وجد فيه أنكس الوشاح.

قال هوكاي: «مهلًا» عندما أشار تشينجاتشجوك إلى علامة على الأرض. أوضح هوكاي لمونرو ودانكن أن آثار الأقدام على الأرض تغيرت عند نقطة معينة. دلت آثار الأقدام على أن إحدى الفتاتين سُحبت على الأرض، ثم قال: «لقد وقعتا في الأسر.»

تقدم أنكس للأمام وأعطى هوكاي شيئًا، ثم قال هوكاي: «إنها صافرة العازف؛ لا بد أنه وقع في الأسر هو الآخر.»

سأله مونرو: «وماذا عن أليس؟»

أجابه هوكاي: «أنا واثق أنها معهما، حتى لو لم نجد علامات على ذلك.»

انحنى الجنرال مونرو ليتفحص آثار أقدام كورا فيما تحدث هوكاي إلى أنكس وتشينجاتشجوك. سار أنكس وتشينجاتشجوك في طريق مختلف. وبعد مرور عدة دقائق سمع هوكاي صياح تشينجاتشجوك.

قال: «لقد عثرنا على آثار أقدام أليس! لقد ركبوا خيولًا هنا؛ لا بد أنهم في طريقهم إلى معسكر ماجوا.»

خطا دانكن للأمام وقال: «انظروا هنا! إنه جزء من قلادة كانت ترتديها أليس.» ثم استدار إلى هوكاي وأردف: «يجب أن ننطلق فورًا، لا بد أن نعثر عليهم.»

قال هوكاي: «علينا أن نضع خطة الليلة. سنستريح بالقرب من الحصن، ونبدأ البحث غدًا بنشاط.»

وافقه الباقون الرأي، وشق الرجال الخمسة طريق العودة مرة أخرى، نحو الحصن المتصاعد منه الدخان.

عندما حل الليل، وقف دانكن أعلى برج مراقبة وراقب السحب وهي تمر. كانت البحيرة ساكنة، لكن هذا المنظر البديع لم يهدئ من روعه. وعثر الجنرال على منزل لم يكن مدمرًا بشدة، ورقد داخله. وفي الطابق السفلي، جلس رجلا الموهيكان يتناولان وجبة من لحم الدب.

جلس رجلا الموهيكان بآذان صاغية وأعين يقظة، لكنهما كانا أقل توترًا من دانكن. تحدثا بلغتهما، لكن دانكن فهم ماذا يقولان بعد أن سمعهما يتحدثان كثيرًا.

أراد هوكاي أن يسير إلى معسكر ماجوا عبر المياه، لكن تشينجاتشجوك رأى أن السفر برًّا سيكون أفضل حل. وسرعان ما أقنع هوكاي رفيقيه من الموهيكان بأن السفر في المياه سيكون أسرع وأكثر أمانًا، وأعدوا كل شيء لرحلة الغد. وسريعًا استغرق الرجال الأربعة في نوم عميق بجانب النيران.

الفصل الثاني عشر

المطاردة

كانت السماء لا تزال مرصعة بالنجوم عندما أيقظ هوكاي الجميع. قال: «هيا بنا، واحترسوا، لا تطئوا فوق أي شيء سوى الأحجار أو الأخشاب. هذا لن يخلف أثرًا يستطيع أحد اقتفاءه سوى الحيوانات. لا تطئوا فوق الحشائش، لأنها ستظهر آثار الأقدام.»

وعندما وصلوا إلى الشواطئ الرملية للبحيرة قال هوكاي: «علينا أن نسرع كي نسير مع المد والجزر، وهو سيمحو كل آثارنا.»

لم ينطق دانكن بكلمة واحدة أثناء تجديف هوكاي ورفيقيه في المياه، وعندما أصبحوا وسط البحيرة قال: «مع وجود الأعداء من خلفنا ومن أمامنا، لا بد أننا في خطر.»

ابتسم هوكاي وقال: «إذا سبقناهم فقد نحظى بفرصة للنجاة.»

قاد تشينجاتشجوك وأنكس الزورق عبر الجداول الصغيرة بين الجزر الصغيرة. سار الزورق في الجداول لبعض الوقت حتى رفع أنكس مجدافه وأشار تجاه الغابة.

قال دانكن: «لا أرى شيئًا!»

همس هوكاي: «دقق النظر، هناك دخان بجانب ذلك الضباب، لقد أشعل أحدهم نيرانًا.»

قال دانكن: «حسنًا، هيا بنا. ليس من المحتمل أن يكونوا كثيرين. ماذا لو كانت كورا وأليس معهم؟»

قال هوكاي: «لا نستطيع معرفة عددهم من تلك النيران المشتعلة. لا نريد أن نندفع. يمكن أن نرسو بالقارب الآن ونسلك طريقنا بين الجبال، ما رأيك يا أنكس؟»

لم يجب الموهيكان الشاب، بل غمر مجدافه في النهر. وعرف هوكاي أن هذه إجابته، فأسرعوا في التحرك نحو الشاطئ.

قال هوكاي: «انظروا هناك! هناك زورقان بالقرب من الدخان.» ثم أشار إلى الأجمة، حيث أخفى رجال الهيرون زورقين.

صاح دانكن: «لقد عثرنا عليهم!»

وعندئذ سمعوا صوت صيحة عالية، فقد رآهم أحدهم! قفز رجال الهيرون عند الشاطئ في زوارقهم وبدءوا في مطاردة دانكن والآخرين.

جدف أنكس وتشينجاتشجوك بكل قوتهما.

وقال هوكاي: «لنحافظ على المسافة التي تفصلنا عنهم؛ حينها لن يستطيعوا اللحاق بنا.»

وبمجرد أن بدءوا في الابتعاد حتى أطلق أنكس صيحة، فقد رأى زورقًا آخر يقترب منهم من الجهة الأخرى. التقط هوكاي مجدافًا وجدف به في الماء.

صاح الجنرال مونرو: «اتجه نحو الصخور، نستطيع قتالهم على اليابسة.»

كان هذا سباق سرعة: من يستطيع الوصول إلى الشاطئ أسرع؟ كان رجال الهيرون يتفوقون على هوكاي ورفاقه. وكلما اقتربوا من الشاطئ زاد أنكس وتشينجاتشجوك وهوكاي من سرعة تجديفهم في الماء. وأخيرًا اتسعت المسافة الفاصلة بين الزورقين. جدف ركاب الزورقين بكل طاقتهم للوصول إلى اليابسة.

لكن بدلًا من أن يرسو هوكاي بزورقه عند الشاطئ الجنوبي من الجزيرة، وجه الزورق بعيدًا. واستسلمت بقية الزوارق وعادت أدراجها، لكن هوكاي أصر على الاستمرار في التجديف. جدف هوكاي ورفيقاه عدة ساعات أخرى، حتى وصلوا إلى خليج بالقرب من الشاطئ الشمالي للبحيرة. وفي النهاية رسوا بالقارب عند الشاطئ، وصعد هوكاي ودانكن فوق جرف عال ليتفحصا المكان.

أشار هوكاي قائلًا: «انظر، هناك، إنه زورق. سيتعقبنا رجال الهيرون فور أن يعم الظلام. سيريدون مباغتتنا، كي يقبضوا علينا على حين غرة.»

نزل هوكاي ودانكن من فوق الجرف، وأخبر هوكاي تشينجاتشجوك وأنكس ما رآه. اتفقوا على التحرك بسرعة، فحملوا زورقهم وبدءوا في السير على امتداد طريق واسع، ثم عبروا جدول ماء ووصلوا إلى منطقة صخرية صغيرة، وعند هذه النقطة تحرك هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك بعناية إلى الخلف لترك آثار خاطئة لتعقبها.

وصلت المجموعة إلى جدول آخر صغير قادهم إلى البحيرة وركبوا في زورقهم. كانت الشجيرات الكثيفة تعلوهم، وتخبئهم عن الأنظار. جدفوا حتى رأى هوكاي أنهم أصبحوا

في أمان ليرسوا، ثم ارتاحوا حتى عم الظلام. وعندما غربت الشمس جدفوا مرة أخرى إلى الشاطئ الغربي. خبئوا الزورق عند الشاطئ وانطلقوا؛ فقد حان وقت البحث عن كورا وأليس.

الفصل الثالث عشر

مفاجأة

كانت اليابسة وعرة والغابة كثيفة، لكن هوكاي ورفيقيه عرفوا الطرق جيدًا. ركضوا في ثقة بين الأشجار، وركض من خلفهم دانكن ومونرو. أرشدتهم النجوم للاتجاه الصحيح، وواصلوا سيرهم حتى رأى هوكاي أن عليهم التوقف.

كان الندى لا يزال يكسو أوراق الشجر عندما استيقظوا وبدءوا في السير في صباح اليوم التالي. وبعد عدة أميال أبطأ هوكاي وأصبح أكثر حذرًا. ثم توقف ليدقق النظر في أشجار بعينها، ودائمًا ما كان يحرص على تفقد الجداول كي يطمئن أنها آمنة قبل أن يعبروها.

قال: «لا أرى أي أثر لهم، وهذا يجعلني أظن أننا سلكنا الطريق الخاطئ.»

قال دانكن: «يا إلهي! لقد أضعنا الكثير من الوقت. علينا أن نعود من حيث أتينا، دقق النظر أكثر.»

وأخيرًا عثر أنكس على أثر.

قال أنكس بحدة: «انظر، لقد خطت الفتاة ذات الشعر الداكن من هنا، هذه آثار أقدامها.»

قال هوكاي: «يتنقل ماجوا كما لو كان جنرالًا فرنسيًّا. إنهم يتنقلون ومعهم خيول، لا بد أنها تحمل الفتاتين. توقفوا هنا لحظة ربما لشرب الماء، لكنهم خلفوا أثرًا. الفرصة سانحة أمامنا للحاق بهم الآن.»

واصلت فرقة الإنقاذ رحلة بحثها مع ظهور بارقة أمل جديدة. وبعد أن صار لدى هوكاي أثر يتبعه، لم يكن ليسمح لنفسه بأن يفقده. دلتهم الأحجار وأغصان الأشجار الصغيرة وفروع الأشجار على الطريق.

لكن ماجوا لم يجعل اقتفاء أثره أمرًا سهلًا على هوكاي؛ فقد خلف علامات خاطئة وسلك انعطافات فجائية، وترك آثار أقدام غريبة. لكن هذا لم يخدع هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك، فقد تركت الخيول علامات، كانت أسهل في اقتفائها.

تركهم أنكس ليقتفي أثرًا غريبًا ووجد أن الخيول كانت تسير بطريقة عشوائية. سأل دانكن: «ماذا يعني ذلك؟»

أجابه هوكاي: «إنهم لا يزالون على قيد الحياة، لكنهم يسيرون الآن على الأقدام. نحن على مقربة من معسكرهم؛ أشعر بذلك. سمعنا أن قبيلة ماجوا حضرت إلى الوديان لاصطياد أيائل المُوظ. إنها بقعة خطيرة في ظل استمرار معارك الفرنسيين هنا. لا بد أن نعثر على الطريق الذي سلكوه.»

تفقد كل من أنكس وهوكاي وتشينجاتشجوك جانبًا صغيرًا من المرج، لكنهم لم يوفقوا في العثور على علامات تدلهم على الطريق. كانت هناك آثار أقدام تؤدي إلى جميع الاتجاهات المختلفة، لكنهم لم يستطيعوا تحديد الطريق الذي سلكه ماجوا ومن معه.

قال هوكاي: «سنبدأ من جديد من عند الجدول الصغير وندقق النظر.»

شق الرجال طريقهم ببطء إلى حيث عثروا على آثار الأقدام الأولية. ولم يتركوا ورقة شجر أو عود خشب دون أن يفحصوه جيدًا، التقطوا الأحجار ودققوا فيها النظر، لكنهم لم يستطيعوا العثور على أثر لاقتفائه.

وأخيرًا عثر أنكس على جدول صغير آخر مغطى بأوراق الأشجار، فأزاح أوراق الأشجار بعيدًا ثم أطلق صيحة سرور، فقد عثر على أثر لحذاء بدون كعب في الطين.

صاح هوكاي: «أحسنت صنعًا، إنها قدم العازف، فهي ضخمة للغاية ولا تناسب أي شخص غيره.»

وانحنى هوكاي ودقق النظر في الطين ثم أردف: «لقد أجبروه على السير أولًا بحيث يخطو الجميع في أثر قدمه.»

قال دانكن: «لكن ليس هناك علامات لكورا وأليس.»

قال هوكاي: «أجزم بأن ماجوا ورجاله يحملونهما. سنرى علامة لهما بعد عدة ياردات.»

سارت المجموعة على امتداد الجدول لنصف ميل قبل أن يصلوا إلى صخرة ضخمة تتدفق المياه من حولها. دقق أنكس النظر عند ضفاف الجدول ووجد طبقة من الطحالب مطبوعًا فوقها أثر أقدام.

صاح دانكن: «لننطلق! لقد عثرنا على الطريق مرة أخرى.»

تساءل هوكاي: «لكن من أين عبروا الماء؟»

نظر دانكن حوله، فقد تعلم الكثير من الموهيكان، ثم قال: «انظر هناك؛ يبدو أنها عجلة يدوية.»

قال هوكاي: «أنت على حق!»

سار هوكاي إلى حيث أشار دانكن وتفحص العجلة اليدوية. وبالقرب منها وجد مجموعة من علامات لأحذية بدون كعب وآثار أقدام صغيرة لكورا وأليس.

قال هوكاي: «إنهما بخير، فآثار أقدامهما قوية وثابتة.»

توقفت المجموعة لنيل قسط قصير من الراحة ولتناول بعض الطعام. وزودهم مشهد غروب الشمس بالحماسة لمواصلة الرحلة. لم يرغبوا في أن يمر يوم آخر دون أن يعثروا على كورا وأليس.

كانوا شديدي القرب من معسكر الهيرون بحلول ذلك الوقت وأصبح اقتفاء آثارهم سهلًا. ولم يمر وقت طويل حتى أبطأ هوكاي السير.

قال: «بعد أن نمر بين الأشجار، سنجد أنفسنا في منطقة مفتوحة، علينا أن نكون أكثر حذرًا. سيمضي أنكس وتشينجاتشجوك على امتداد الجدول، وأنا سأقتفي آثار الأقدام. إذا حدث أي شيء فسنطلق ثلاث صيحات، كصوت الغراب.»

مضى الموهيكان الاثنان، تشينجاتشجوك وأنكس، بعيدًا، فيما سلك هوكاي ودانكن ومونرو طريقًا آخر، وعندما اقتربوا أكثر من المعسكر طلب هوكاي من مونرو ودانكن أن ينتظرا في الدغل.

وفجأة رأى دانكن شخصًا قادمًا نحوه منحنيًا على يديه وقدميه. وكاد دانكن أن يطلق صيحة الغراب، لكنه لم يرغب في أن ينفضح أمره.

تسلل هوكاي بجوار دانكن وقال: «عثرنا على معسكرهم، لكن هذا ليس من الهيرون. أعتقد أنه أحد مرشدي مونتكالم.»

قال دانكن: «إنه ليس مسلحًا، وما دام لم يناد على أصحابه فلا داعي للخوف.»

ولدهشة دانكن، تقدم هوكاي وربت على كتف الرجل.

قال هوكاي: «مرحبًا ديفيد، كيف حالك؟»

فوجئ دانكن لاكتشاف أن من ظنه من الأعداء هو صديق؛ فخرج من مخبئه وركض نحو رفيقيه، وتبعه الجنرال مونرو.

ضحك دانكن قائلًا: «لقد أعطوك ملابس غريبة، تبدو كرجل من قبيلة الهيرون تمامًا!»

وفجأة سمعوا صوت صيحات الغراب، فظنوا لحظة أن أنكس وتشينجاتشجوك في خطر، لكنهم أدركوا أنه صوت طائر حقيقي. لم يكن أحد في خطر. وسمع رجلا الموهيكان الصوت نفسه أيضًا، وشقا طريقهما إلى هوكاي ومن معه.

سأل مونرو: «ماذا عن ابنتيَّ؟»

أجابه ديفيد: «ماجوا يحتجزهما في معسكره.»

سأله هوكاي: «وأين ماجوا الآن؟»

رد ديفيد: «لقد خرج لصيد المُوظ، ومن المفترض أن يتوغل هو ورجاله أكثر في أعماق الغابة غدًا؛ وبعدها سيذهبون إلى كندا. لكنهم لا يحتجزون الفتاتين معًا، فأليس موجودة مع نساء قبيلة الهيرون، وكورا مع مجموعة أخرى، توجد بعد الصخور.»

سأله هوكاي: «ولماذا يسمحون لك بالتجول بحرية؟»

أجابه قائلًا: «إنهم يظنون أنني مجنون، ولا يرون أنني أمثل خطرًا عليهم.»

قال هوكاي: «لقد عثرنا على صافرتك، أظن أنك ترغب في استعادتها.» ثم أخرج الصافرة، فأخذها ديفيد في سعادة.

سأله هوكاي عن معلومات أخرى عن كورا وأليس، فأدق التفاصيل قد تساعدهم في العثور على الفتاتين. لكن ديفيد لم يكن يعلم الكثير. واقترح دانكن طرقًا كثيرة ومختلفة لإنقاذ كورا، لكن هوكاي رأى أنها لن تفلح.

قال هوكاي: «أظن أنه من الأفضل أن يعود ديفيد إلى هؤلاء الناس. يمكنه العثور على كورا وأليس ويخبرهما أننا قادمون إليهما. وعندما يرى أننا نستطيع الوصول إليهما دون التعرض لخطر كبير يمكنه إرسال إشارة إلينا. هل تعلم يا سيدي صوت صياح الطائر الليلي؟»

ابتسم ديفيد وأجاب: «أجل، بالطبع.»

قال هوكاي: «حسنًا، ستكون هذه الإشارة. عندما تسمع هذه الصيحة ثلاث مرات، ستأتي إلى الدغل و...»

قال دانكن: «كفى، سأذهب معه.»

نظر هوكاي إليه وقال: «إذا ذهبت معه فمن المؤكد أنك ستقتل.»

قال دانكن: «يمكنني أن أتظاهر بأنني مجنون أو أحمق وأستحوذ على اهتمامهم. أنا مستعد لفعل أي شيء لإنقاذ أليس وكورا.»

كان ذلك قرار دانكن، ولم ينفع كلام هوكاي معه ليجعله يعدل عن قراره. قال له: «يمكنني أن أذهب متنكرًا وأنقذ أليس، فيما تنقذ أنت كورا. قضي الأمر.»

قال هوكاي: «حسنًا، اجلس فوق تلك الصخرة، وسيساعدك تشينجاتشجوك.»

بعد أن تنكر دانكن جيدًا تحدث مع هوكاي مرة أخرى. راجعا معًا الإشارات التنبيهية وحددا مكانًا ليلتقيا فيه ما إن يتمكن دانكن من إنقاذ أليس.

وأثناء رحيله جذبه هوكاي جانبًا وأخبره أنه سيحرص على سلامة الجنرال مونرو قبل أن يذهب لإنقاذ كورا. وأن تشينجاتشجوك سيمكث معه.

قال هوكاي: «حظًّا سعيدًا. أنت رجل شجاع، وأنا أحترم هذا.»

صافح أحدهما الآخر، ثم أومأ دانكن لديفيد، وغادر الاثنان المنطقة الآمنة عند الضفة الصغيرة. راقبهما هوكاي، ثم غادر مع أنكس أيضًا.

الفصل الرابع عشر

أنكس في الأسر

بعد مرور عدة دقائق من السير، شق ديفيد الطريق نحو الخيمة الرئيسية، وتبعه دانكن وفعل ما فعله ديفيد بالضبط. أمسك كل منهما بمجموعة من نبات الساسفراس، وجلس ديفيد في الزاوية. لكن قبل أن يجلس دانكن بجانبه التف حولهما الرجال الموجودون داخل الخيمة.

أشعل أحدهم مصباحًا، واستطاع دانكن رؤية وجوه الرجال الملتفين حوله بدقة أكثر. تطلع كل منهم في دانكن من أخمص قدميه حتى منبت شعره، وحدقوا في كل جزء منه جيدًا. تقدم نحوه عجوز أشيب الشعر وتحدث معه بلغة الهيرون، لكن دانكن لم يفهمه.

سأل دانكن: «هل يتحدث أي منكم الإنجليزية؟» لكن لم يجبه أحد، فسأل: «هل يتحدث أي منكم الفرنسية؟ لغة مونتكالم؟»

عم الصمت وقتًا طويلًا.

وأخيرًا قال العجوز بالفرنسية: «مونتكالم يتحدث إلينا بهذه اللغة، من أنت؟ لماذا أنت متنكر؟»

أجاب دانكن: «جئت لأرى هل هنا مرضى؛ فأنا طبيب.» ثم سأله: «عندما تقابل أناسًا ليسوا من قبيلتك، ألا تخلع ملابسك المصنوعة من جلد الجاموس كي تبدو مثلهم؟»

ضحك زعيم القبيلة ثم صفق، لكن قبل أن يجيبه دوت صرخات حادة قادمة من الغابة. فزع دانكن ووثب خوفًا، واندفع كل من بالخيمة إلى الخارج. كانوا مبتهجين لعودة المحاربين واحتفلوا بالنصر.

دفع الرجال دانكن حتى أصبح في منتصف دائرة. وتوهجت ألسنة النيران من حوله، ثم دفعوا برجل آخر، كان قد وقع في أسرهم، داخل الدائرة أيضًا، حتى أصبح وجهًا لوجه مع دانكن. لقد كان أنكس!

حاول دانكن ألا تبدو عليه الصدمة، فهو لم يرد أن يعرف أفراد قبيلة الهيرون أن هذا هو أنكس. كانت النساء تضايق أنكس، والرجال يسخرون منه. تألم دانكن لرؤية صديقه الأبي يلقى هذه المعاملة. ثم جذب أحد المحاربين ذراع أنكس وأجبره على الدخول إلى الخيمة، واقتيد دانكن أيضًا إلى الخيمة.

وقف رجل غريب بعيدًا عن الحشد، ولم يرغب دانكن في النظر إليه خشية أن يكون هوكاي، ولم يكن ليتحمل أن يرى صديقه في خطر. لكنه لم يكن هوكاي، فقد أدرك دانكن من ملبسه وقصة شعره أنه من الهيرون.

جلس زعماء القبيلة في أماكنهم داخل الخيمة الكبيرة المليئة بالدخان، ووقف باقي الرجال والنساء من حولهم. أما أنكس فوقف هادئًا أمامهم جميعًا.

خاطب زعيم القبيلة العجوز أنكس قائلًا: «أيها الغريب، لا يزال بإمكانك إثبات شجاعتك والنجاة بحياتك. سنعطيك اليوم راحة، ويمكنك تناول الطعام. وغدًا سنقرر مصيرك.»

نظر أنكس مباشرة إلى العجوز وقال: «لست بحاجة للطعام.»

تابع الزعيم كلامه: «هناك محاربان شابان من رجالنا يقتفيان أثر المرشد الآخر.»

قال أنكس: «لن يتمكن محارباك الشابان من القبض عليه أبدًا.»

قال الزعيم: «لقد تمكنا من القبض عليك.»

أجاب أنكس: «ها! إن محاربك المدعو «القصبة المرنة» جبان. كان يفر من ساحة القتال عندما قبض عليّ على حين غرة.»

عندئذ مر الزعيم أشيب الشعر بجانب أنكس ووقف أمام الغريب.

قال: «أيها القصبة المرنة، لقد جلبت لنا العار. لا أشك في صحة ما قاله ذلك الرجل؛ فأنت جبان. دعيت للحرب ثلاث مرات وهربت من ساحة القتال ثلاث مرات. ارحل ولا تعد إلينا مرة أخرى. لقد نسينا اسمك من تلك اللحظة.»

وقف الشاب ونظر إلى الزعيم العجوز، وترقرقت عيناه بالدموع وهو يدير ظهره ويغادر الخيمة، ولم يلتفت خلفه.

وعندما اتجه الجميع للخارج لمشاهدة القصبة المرنة وهو يغادر القرية، تسلل أنكس إلى جانب دانكن.

همس إليه: «هوكاي والجنرال مونرو بخير. لن يستطيع هؤلاء القوم إخافتي. اخرج بسرعة، قبل أن يرونا ونحن نتحدث.» ثم دفع دانكن تجاه الباب.

كانت النيران بالخارج تخمد، وأخذ رجال ونساء الهيرون يمرون جيئة وذهابًا. وكان دانكن يشعر بالذعر، لكنه دفع نفسه للبحث عن أليس في المعسكر. فتش في جميع الأكواخ، وكان يرفع البطاطين وينظر داخل الكوخ، لكنه لم يجد لها أثرًا. وأخيرًا عاد إلى الخيمة الرئيسية للبحث عن ديفيد؛ لعله يستطيع مساعدته في البحث.

كان أنكس لا يزال هناك، لكن ديفيد لم يكن موجودًا. استدار زعيم القبيلة إلى دانكن وقال: «أنت طبيب من الفرنسيين؟ إذن بمقدورك طرد الروح التي تسكن جسد إحدى نسائنا. إنها مريضة للغاية حتى إننا أبعدناها عن هنا، ووضعناها مع أسرانا في الكهوف.»

قال دانكن وهو يحاول إخفاء سروره بمعرفة مكان احتجاز الأسرى: «كل روح متفردة؛ وبعض الأرواح تفوق قوتها قدرتي على التعامل معها.»

قال الزعيم العجوز: «لكنك ستحاول.»

وقبل أن ينطق دانكن بكلمة واحدة، علت أصوات الناس داخل الخيمة مرة أخرى، فقد دخل ماجوا إلى الخيمة! لقد عاد. حياه الزعيم العجوز بحرارة وقال: «صديقي! هل عثرت على حيوانات الموظ؟»

قال ماجوا: «لم يحالفنا الحظ كثيرًا. دع القصبة المرنة يذهب، وسرعان ما سيعثر على تلك الحيوانات. إنه أفضل صيادينا.»

عم الصمت أرجاء الخيمة، ونكس المحاربون الأقوياء رءوسهم. ونهض الزعيم العجوز وقال: «ذلك الشخص مات في نظرنا، لقد نسينا أمره. لن يذكر أحد اسمه من تلك اللحظة.»

لم ينطق ماجوا بكلمة واحدة، لكن دانكن أدرك أنه غضب. وتابع الزعيم العجوز كلامه قائلًا: «لقد قبض المحاربون الشباب على أحد أعدائنا. انظر، لقد وقع في أسرنا.»

تفرق الناس ليكشفوا عن أنكس، الذي كان يقف في شموخ وقوة. حدق ماجوا وأنكس في عيني أحدهما الآخر لدقيقة، ثم كسر ماجوا حالة الصمت أولًا وقال: «إنه أنكس، آخر الموهيكان!»

بدأ الناس يتمتمون، وتردد اسم أنكس بين الموجودين داخل الخيمة.

قال ماجوا: «أيها الموهيكاني، سوف تموت.»

رد أنكس: «لن أموت على يدك الضعيفة.»

ازداد غضب ماجوا، ثم استدار إلى أفراد قبيلته وبدأ يتحدث. حكى لهم قصصًا عن أنكس الذي تسبب في أذى الكثير من أصدقائه المحاربين. وبعد أن انتهى رفع ماجوا فأسه وألقاها داخل الخيمة، فقطعت الفأس بعض الريش الموجود على رأس أنكس!

وثب دانكن ذعرًا، لكن أنكس لم يتحرك قيد أنملة؛ لقد وقف في صمت وهدوء كأنه حجر.

صاح ماجوا: «خذوه بعيدًا! احتجزوه هذه الليلة.»

قيد المحاربون الشباب يدي أنكس واقتادوه خارج الخيمة. والتفت دانكن إلى طريق الخروج، وأدرك أن الأمر لم ينته بعد. وغادر ماجوا بعد ذلك سريعًا.

مر الزعيم العجوز من جانب دانكن وأشار إليه ليتبعه. وبدلًا من أن يسير الزعيم نحو الأكواخ سار في الاتجاه الآخر، نحو قاعدة جبل مجاور. وقبل أن يصلا إلى الممر المؤدي إلى الكهف توقف دانكن.

كان دب أسود ضخم يقف أمامهما. زمجر الدب وحدق بزعيم القبيلة. للحظة، خشي دانكن ألا يسمح لهما الدب بالمرور إلى الداخل، لكنه تنحى عن الطريق. واستجمع دانكن كل شجاعته كي لا ينظر خلفه، وعلى الرغم من ذلك كان يشعر بالدب يسير خلفه. كان دانكن يوشك على الالتفات خلفه والصياح بشيء ما، لكن في تلك اللحظة فتح زعيم القبيلة بابًا مصنوعًا من لحاء الأشجار ودخل إلى الكهف.

استطاع دانكن رؤية الدب حينها؛ كان يسير بجانبه داخل الكهف! اقترب دانكن قدر استطاعته من زعيم القبيلة. وفي النهاية وصلا إلى الغرفة.

اندهش دانكن عندما رأى ديفيد يقف بجوار سرير وسط الغرفة حيث ترقد امرأة شابة مريضة للغاية. وأدرك دانكن أنه لا يستطيع عمل أي شيء لإنقاذها. شرع ديفيد في غناء أغنية جميلة. وجلس الدب في زاوية من الغرفة وأخذ يطن ويزمجر مع ألحان الأغنية على ما يبدو. أخافت الأصوات التي يصدرها الدب ديفيد كثيرًا حتى إنه توقف في منتصف الأغنية وصاح في دانكن: «إنها تنتظر منك أن … أن تساعدها!» ثم أسرع خارج الكهف.

الفصل الخامس عشر

دانكن يقابل دبًّا

واصل الدب زمجرته، ثم راح يتدحرج فوق أرضية الكهف.

تقدم زعيم القبيلة للأمام وطلب من باقي الفتيات اللاتي يعتنين بالفتاة المريضة الانصراف.

قال للفتاة المريضة: «دعي هذا الرجل يساعدك.» ثم التفت إلى دانكن وقال: «سأتركك هنا، وأثق أنك ستفعل ما بوسعك لمداواتها.»

وجد دانكن نفسه وحيدًا مع الدب والفتاة المريضة المسكينة. اقترب الدب منه وجسده يهتز بالكامل. نظر دانكن حوله سريعًا بحثًا عن طريق للهرب، لكن لم يكن هناك مكان للهرب. هز الدب نفسه بقوة حتى إن دانكن لم يستطع التفكير فيما عليه فعله. وبعد ذلك سقط رأس الدب! لقد كان لباسًا تنكريًّا؛ كان هوكاي يرتدي فراء دب!

صاح دانكن: «يا إلهي! ماذا تفعل بحقك؟»

قال هوكاي: «تركت الجنرال وتشينجاتشجوك في كوخ عتيق مصنوع من فراء حيوان القندس، وهم في أمان من رجال الهيرون. ثم شققت طريقي أنا وأنكس إلى المعسكر الآخر، هل رأيته؟»

أجاب دانكن: «أجل، لقد قبضوا عليه. سيقتلونه غدًا، الأمر غاية في الخطورة!»

قال هوكاي: «آه، توقعت ذلك، لذا جئت إلى هنا. لا أستطيع أبدًا تركه يواجه ذلك المصير المشئوم.»

سأله دانكن: «ماذا حدث؟»

أجاب هوكاي: «ابتعد أنكس كثيرًا ولم أستطع مواكبته؛ كان سريعًا للغاية. وبعد ذلك اشتبك مع أحد رجال الهيرون، رجل جبان فر من المعركة، وقاد أنكس إلى كمين!»

قال دانكن: «لقد دفع ثمنًا غاليًا لركضه السريع. لكن كيف عثرت على هذا اللباس التنكري؟»

ضحك هوكاي وقال: «التقيت مصادفة بأحد رجال الهيرون كان يرتدي هذا للاحتفال. قيدته وأخذت منه ذلك الفراء لأستطيع المجيء للبحث عنك، ونتمكن معًا من إنقاذ أنكس وأليس.»

قال دانكن: «حسنًا، أنت تقلد الدب جيدًا!»

رد هوكاي: «من يستطيع أن يعيش في الغابات وقتًا طويلًا دون أن يتعلم كيف يتحرك الدب؟! هل حالفك الحظ في العثور على أليس؟»

هز دانكن رأسه وأجاب: «لقد فتشت كل الأكواخ في القرية ولم أجد لها أثرًا. توقعت أنها ستكون هنا.»

قال هوكاي: «سمعت ما قاله ديفيد؟ قال إنها تنتظرك.»

قال دانكن: «حسبته يتحدث عن هذه الفتاة المسكينة.» وأشار إلى الفتاة الراقدة فوق السرير.

قال هوكاي وهو يرتدي رأس الدب ثانية: «ربما، لكن هناك طريقة واحدة لنكتشف ماذا كان يقصد. سأتنكر في هيئة الدب ثانية، وسأتسلق لأعلى لأرى ما يمكنني اكتشافه.»

تسلق هوكاي جدران الكهف، كما تفعل الدببة. واستغرق بعض الوقت في التسلق، لكن عندما وصل إلى الأعلى نظر حوله جيدًا.

همس هوكاي: «أليس هنا، هناك باب آخر خلفك. إنها توجد خلف ذلك الباب.»

خطا دانكن نحو الأمام.

وأردف هوكاي: «أستطيع التحدث إليها، لكنني أخشى ترويعها إذا رأتني وأنا متنكر كالدب.» ثم ضحك وقال: «لا شك أنك أيضًا لا تبدو وسيمًا وأنت متنكر هكذا.»

سأله دانكن: «هل أبدو مخيفًا لهذه الدرجة؟»

أجابه هوكاي: «يمكنك أن تخيف ذئبًا على الأرجح. انظر، هناك ينبوع مياه، يمكنك غسل وجهك بالماء أولًا.»

استغرق دانكن عدة دقائق لإزالة تنكره، ثم أسرع عبر الممر إلى الباب الآخر. وفي غضون ذلك، تفحص هوكاي المخبأ السري لقبيلة الهيرون بحثًا عن مخرج آخر. وفي النهاية وصل دانكن إلى آخر غرفة داخل الكهف وفتح الباب الخشبي.

قالت أليس: «دانكن!»

أجابها: «أليس!»

قالت: «علمت أنكم ستأتون لإنقاذي! لكنك جئت وحدك؟»

أخبرها دانكن أنه جاء برفقة هوكاي وصاحبيه من الموهيكان لإنقاذها. قال لها: «علينا الآن أن نخرج من هنا، لكن لا بد أن تكوني غاية في الشجاعة. فكري في أبيك، وكم سيسعد برؤيتك.»

كانا يتحدثان بهدوء حين شعر دانكن بأحد يربت على كتفه، فالتفت، فرأى ماجوا يقف خلفه!

قالت أليس: «ماذا تريد؟» وطوت ذراعيها أمام صدرها. دفع دانكن نفسه أمامها وحدق في وجه ماجوا. في البداية، لم يتحرك أحد، ثم تحرك ماجوا خلف دانكن وأغلق الباب. لن يكون هناك مهرب.

قال دانكن: «بإمكانك احتجازنا رغمًا عنا، لكننا سنثأر منك. ستموت، على يدي!»

ضحك ماجوا وقال: «هل ستغضب كثيرًا غدًا عندما نعاقبك مع أنكس؟»

استدار ماجوا وكاد أن يغادر الغرفة حين أوقفته صرخة عالية. علم ماجوا أنها خدعة؛ فقد رأى ذلك الزي التنكري عدة مرات من قبل، لكن عندما حاول المرور من جانب الدب أطلق الدب صرخة غاضبة عالية أخرى. وقف الدب على رجليه الخلفيتين وحرك مخالبه الأمامية.

قال ماجوا: «خدع حمقاء، اذهب واعبث مع الأطفال.»

قفز الدب للأمام وأمسك بماجوا. وتصرف دانكن بسرعة وجلب حبلًا من الكهف وقيده به. أخذ ماجوا يقاومهما، لكن دون جدوى، فقد أحكم هوكاي ودانكن وثاقه جيدًا بالحبل.

خلع هوكاي سريعًا ملابس الدب، وعندما رآه ماجوا قال: «أنت!»

سأل هوكاي: «كيف دخل إلى هنا، أنا لم أره.» أشار دانكن إلى باب من خلفهم.

قال هوكاي: «أحضر أليس، علينا أن نرحل. سنخرج من ذلك الطريق ومنه إلى الغابة.»

قال دانكن: «لكن هذا الطريق خطير للغاية! ثم انظر.» وأشار إلى أليس التي فقدت الوعي، «إنها ليست بخير.»

قال هوكاي: «دثرها في هذه البطاطين، ستضطر إلى حملها. ليس أمامنا وقت لنهدره.»

حاول هوكاي ودانكن فتح الباب الذي دخل منه ماجوا، لكنه لم يتحرك ولو قليلًا.

سأل دانكن: «ماذا سنفعل الآن؟»

قال هوكاي: «علينا أن نسلك الطريق الذي جئنا منه.»

قال دانكن: «لكن زعيم القبيلة سيكون هناك، وسيسأل عن الفتاة المريضة.»

قال هوكاي: «عليك خداعه. أستطيع مغادرة الكهف وأنا متنكر.»

أومأ دانكن برأسه، واتجها نحو الممر المؤدي إلى الخارج. وضع هوكاي رأس الدب مرة أخرى وخرج من الكهف، ووجدا حشدًا من الناس يقفون بالخارج.

صاح زعيم القبيلة: «كيف حال الفتاة؟»

أجابه دانكن: «لقد طردت الروح الشريرة من جسدها، وهي عالقة الآن على الجدران، لكن علينا أن نحملها أنا والدب بعيدًا عن هنا. نحن بحاجة إلى أعشاب من الغابة لمساعدتها على الشفاء.»

قال الزعيم: «أجل، اذهب، سأدخل وأحارب الأرواح الشريرة الموجودة على جدران الكهف.»

صاح دانكن: «كلا، هل ترغب في أن تدخل هذه الأرواح إلى جسدك؟ هذا ما سوف يحدث إذا دخلت إلى الكهف. لا بد أن تنتظر هنا حتى تخرج الأرواح، وبعد ذلك يمكنك محاربتها.»

أومأ الزعيم برأسه وقال: «هذه نصيحة رائعة.»

وقف الرجال والنساء بجانب مدخل الكهف واستعدوا لمحاربة الأرواح الشريرة. وأومأ دانكن برأسه، ثم بدأ يركض بعيدًا بين الحشد، لكنه لم يعد إلى القرية. بل تبع هوكاي حول الأكواخ ومنها إلى الغابة.

أيقظ هواء الليل البارد أليس، وأخبرت دانكن أنها بحالة جيدة تسمح لها بالسير. وفي نهاية المطاف وصلوا إلى طريق، قال هوكاي: «هذا الطريق سيقودكما إلى جدول، سر على امتداد ضفته الشمالية، ثم اعبر الجبل واتجه نحو مخيمات قبيلة ديلاوير. قد يأخذونكما أسرى، لكنني أثق أن كورا محتجزة هناك. يمكننا أن نأتي لإنقاذكم ما إن نحرر أنكس. اذهب سريعًا الآن.»

وبينما كان دانكن وأليس ينطلقان في طريقهما التفت دانكن إلى هوكاي وقال: «حفظك الله يا هوكاي، وشكرًا لك!»

لوح لهما هوكاي بيده وتسلل إلى القرية مرة أخرى، ومر بكوخ غير مكتمل البناء، رأى أنه مكان اختباء جيد، فتسلل داخله. فوجئ هوكاي بديفيد داخل الكوخ يجلس فوق كومة من أوراق الشجر. وعندما رأى ديفيد الدب صرخ.

قال هوكاي: «ديفيد، إنه أنا هوكاي.»

سأله ديفيد: «هــ ... هــ ... هل تحولت إلى دب؟»

قال هوكاي: «إنه لباس تنكري. هل رأيت أنكس؟»

أجابه ديفيد: «لقد قيدوه بالحبال.»

سأله هوكاي: «هل تستطيع إرشادي إلى المكان الذي يحتجزونه به؟»

أومأ ديفيد برأسه إيجابًا.

قال هوكاي: «هيا بنا إذن!»

كانت الخيمة التي يوجد بها أنكس في منتصف القرية. تسلل هوكاي وهو متنكر في هيئة دب مباشرة بين الأكواخ، لكن الدخول إلى الخيمة أو الخروج منها كان أمرًا شديد الصعوبة. رأى المحاربون الأربعة الذين يحرسون الخيمة الدب، لكنهم لم يغادروا أماكنهم. زمجر هوكاي، وخطا ديفيد نحوهم.

قال ديفيد: «يرغب الدب في رؤية الأسير.»

لم يتحرك الحراس رغم ذلك. وزمجر هوكاي مرة أخرى ولوح بذراعه. قال ديفيد مرة أخرى: «ألم تسمعوني؟ الدب القوي يود رؤية الأسير؟»

في نهاية الأمر سمح الحراس لديفيد وهوكاي بالدخول إلى الكهف. كان أنكس جالسًا في ركن بعيد، ويداه ورجلاه مقيدة. انتصب واقفًا عندما رأى الدب، ورجع بظهره إلى الجدار، فأطلق هوكاي صافرة خافتة، فعرف أنكس أنه ليس دبًّا حقيقيًّا.

قال: «هوكاي!»

قال هوكاي لديفيد: «اقطع الحبال»، ففعل ديفيد ذلك سريعًا. وبينما كان ديفيد يحل وثاق أنكس خلع هوكاي ملابسه التنكرية.

قال أنكس: «انتظر، كيف سنخرج من هنا؟ ألن يكون من الأفضل أن تظل متنكرًا في هيئة دب؟»

فكر هوكاي لحظة ثم قال: «أجل، سأذهب إلى الخارج لجذب انتباههم، وفي غضون ذلك تتسلل أنت والعازف إلى الخارج.»

لكن عندما أمسك بزيه التنكري، عدل عن رأيه وقال: «كلا، تنكر أنت في هيئة الدب يا أنكس، وأنا سأتنكر في زي العازف. ديفيد، هل أنت شجاع بدرجة كافية لتبقى هنا وتجعلهم يظنون أنك أنكس، لدقيقة واحدة على الأقل؟»

أومأ ديفيد برأسه قائلًا: «أجل، بالطبع.»

وعندما غادر هوكاي كان ينفخ في الصافرة ويحرك ذراعيه مع الموسيقى، وسار في أثره أنكس، الذي كان متنكرًا في صورة دب، ولم يعرهما الحراس انتباهًا.

كان هوكاي وأنكس عند حدود الغابة عندما سمعوا الصيحة الأولى. قال هوكاي: «لقد اكتشفوا أنك لست بالداخل يا أنكس! هيا بنا!»

خلع هوكاي وأنكس ملابسهما التنكرية وانطلقا داخل الغابة. وعندما بدأ الحراس في الصياح خرج ما يزيد عن مئتي رجل مستعدين للقتال من أكواخهم من كل اتجاه بالقرية. وسرعان ما علم الجميع أن أنكس هرب، وامتلأت الخيمة الرئيسية بأناس يتساءلون عما سيحدث بعد ذلك.

صدرت الأوامر لبعض الشباب بتفتيش القرية سريعًا. وأحضر حارسان ديفيد إلى خيمة زعيم القبيلة. واكتشفوا أيضًا بحلول ذلك الوقت أن دانكن لم يداو الفتاة المريضة، وعثروا على ماجوا مقيدًا داخل الكهف.

وبعد أن اجتمع المحاربون كافة داخل الخيمة الرئيسية، تقدم ماجوا وتحدث: «لقد هرب الموهيكاني! من فعل ذلك؟»

قال زعيم القبيلة ذو الشعر الأشيب: «لا بد أنه هوكاي. المحاربون يقتفون أثره.»

صاح أهل القرية في غضب. وأرسل زعيم القبيلة المزيد من الرجال لاقتفاء أثر أنكس وهوكاي، فيما أمر ماجوا بعض الجواسيس بالذهاب إلى قرية ديلاوير وتفقد الأمر هناك. انطلق المحاربون في كل الاتجاهات، وعاد الآخرون إلى أكواخهم لنيل قسط من الراحة، إذ سيُستدعون قريبًا.

وقبل أن تشرق الشمس تمامًا دخل عشرون محاربًا كوخ ماجوا. كانوا مستعدين للقتال، ونهض ماجوا وسار إلى الخارج. اصطف الرجال خلفه، وشقوا طريقهم نحو الجدول الصغير.

مر ماجوا ورجاله بالماء دون أن يلحظوا وجود حيوان قندس يراقب تحركاتهم بدقة. كان ذلك القندس تشينجاتشجوك. راقب تشينجاتشجوك، من تحت فراء القندس الذي يحتمي داخله، كل خطوة يتخذها ماجوا ورجاله.

الفصل السادس عشر

أسرى ماجوا

كان كل شيء عاديًّا في قرية ديلاوير ذلك الصباح. فعندما وصل ماجوا إلى القرية كانت الشمس ساطعة في السماء. تجول في القرية وحيا الجميع بحرارة. ثم صافحه زعيم قبيلة ديلاوير.

سأله ماجوا: «هل تسببت أسيرتي في أي متاعب لكم يا تامينوند؟»

أجابه زعيم القبيلة: «لم تتسبب في أي متاعب، إنها مع باقي السجناء.»

سأل ماجوا: «هل وفقتم في الصيد؟»

أجابه الزعيم: «أجل، كثيرًا.»

قال ماجوا: «لقد أحضرت معي بعض الهدايا.» ثم أعطاه بعض المجوهرات التي أخذها من كورا وأليس.

قال تامينوند: «شكرًا لك. أنت محل ترحاب هنا.»

قال ماجوا: «هناك رجل بينكم ألحق الأذى بأفراد قبيلتك. ندعوه هوكاي. ربما يكون مختبئًا مع باقي السجناء.»

سأله تامينوند: «لماذا يلحق الأذى بأفراد قبيلتي؟»

أجابه ماجوا: «لطالما كان هوكاي عدوًّا لقبيلتك، إنه يقتل الناس دون أي اعتبار للشرف.»

عندئذ نهض تامينوند، ونادى على أفراد القبيلة، الذين بدءوا في التجمع في الخيمة الرئيسية. أخبر زعيم القبيلة الناس بالأنباء المروعة؛ إن هوكاي كان يقتل ذويهم.

في غضون ذلك وقفت كورا بجانب أليس وسط مجموعة السجناء، ووقف دانكن خلفهما مباشرة. كان هوكاي محقًّا، فقد احتجزهم أفراد قبيلة الديلاوير، دون أن يلحقوا بهم الأذى. وقفت مجموعة السجناء وأحاط بهم المحاربون من كل اتجاه.

تقدم تامينوند وقال: «من منكم هوكاي؟»

لم يجب دانكن أو هوكاي، الذي وقف على مقربة منه. كان هوكاي قد تسلل إلى مخيمات ديلاوير في ساعة مبكرة ذلك الصباح. أما أنكس فلم يكن هناك؛ كان مختبئًا في الغابة.

نظر دانكن حوله ورأى ماجوا؛ فأدرك على الفور أن ماجوا أخبر تامينوند بقصص كاذبة.

قال هوكاي: «أنا من تبحث عنه، أنا المدعو هوكاي.»

قال دانكن: «كلا، أنا هوكاي، قد لا أبدو كالمرشدين، لكنني أؤكد لك أنني هوكاي.»

أخذ زعيم القبيلة ينظر إلى دانكن وهوكاي في حيرة من أمره لأن الاثنين يزعمان أنهما هوكاي.

قال تامينوند: «يقول أخونا ماجوا إن شخصًا خائنًا تسلل إلى مخيمنا.» ثم استدار إلى ماجوا وسأله: «أي منهما هوكاي؟»

أشار ماجوا إلى هوكاي.

صاح دانكن: «أتصدق ذئبًا مثله؟»

استدار زعيم القبيلة إلى دانكن قائلًا: «تبدو كجندي أكثر مما تبدو مرشدًا. أستطيع تبين ذلك بوضوح الآن. هذا الرجل هو هوكاي.»

وأشار إلى هوكاي الذي كان يقف خلف دانكن مباشرة وقال: «سنستمع إلى ما سيقوله ماجوا.»

برز ماجوا من بين الحشد، وتطلع إلى جميع السجناء جيدًا. ثم بدأ يتحدث. كان كلامه مقنعًا، لكن زعيم القبيلة أراد معرفة سبب حضور ماجوا. أجابه ماجوا: «العدالة؛ تحتجز قبيلة الديلاوير سجناء ألحقوا الأذى بأشقائي.»

أومأ تامينوند قائلًا: «العدالة مهمة؛ خذ أسراك وارحل. لا نحتاج إلى سماع خطبة أخرى.»

خرج خمسة من المحاربين الموالين لماجوا من بين الناس وأمسكوا بدانكن وكورا وهوكاي وأليس.

صاحت كورا: «انتظر! أنت زعيم طيب وعادل يا تامينوند، رجاءً لا تصدق أكاذيب هذا الرجل.» وجثت على ركبتيها وأردفت: «إذا تركته يأخذنا فستعرض حياتنا لخطر كبير.»

نظر تامينوند إلى الشابة الجميلة نظرة حنونة. قالت كورا: «لا أطلب منك إنقاذي، لكن أنقذْ شقيقتي، فهي ابنة رجل مسن. لا تسمح لهذا الوحش أن يأخذها منه، ألست أبًا؟ ألا تتفهم ما أقوله؟»

قال تامينوند: «أنا أب لهذا الشعب.»

قالت: «إذن، رجاءً استمع إلى شخص من قبيلة أخرى وهو يتحدث عنا. لعله يوضح لك الحقيقة قبل أن تسمح لماجوا بأن يأخذنا معه.»

أومأ تامينوند وقال: «دعوه يحضر.» وقفوا في انتظار أنكس، لكن لم يكن هناك سوى صوت الرياح التي تتخلل أوراق الأشجار.

بعد مرور لحظات حضر أنكس إلى منتصف الدائرة. تقدم ببطء، ثم جلس أمام تامينوند. تحدثا معًا وقتًا طويلًا، لكن لم ينجح أنكس في إيضاح كل ما حدث للزعيم العجوز. اندلع شجار، وبمحض الصدفة مزق بعض رجال تامينوند قميص أنكس.

توقف الرجال عن القتال ما إن رأوا وشمًا لسلحفاة صغيرة بجسد أنكس، وهو رمز لقبيلة الموهيكان.

سأله تامينوند: «من أنت؟»

أجاب أنكس: «أنا أنكس، ابن تشينجاتشجوك.»

قال تامينوند: «مستحيل! هل هذا أنت حقًّا؟ ابن الموهيكان العظيم هنا؟ أنكس، يجب أن تخبرنا بحقيقة ما حدث. لقد ظننا أن الموهيكان ماتوا جميعًا.»

أومأ المحارب الشاب، وأخبر الزعيم العجوز بكل شيء عن هوكاي، وعن وقوفه بجانبه وبجانب أبيه. ثم تحدث معه عن ماجوا وأخبره بما فعله مع كورا وأليس من أشياء مروعة.

وفي النهاية أقنع تامينوند بإطلاق سراح دانكن وأليس وهوكاي. لكن ماجوا رفض أن يرحل دون أن يأخذ معه كورا. وقال تامينوند إن ذلك ثمن زهيد مقابل أن يعم السلام.

قال هوكاي: «كلا ...» وتقدم للأمام مردفًا: «خذني أنا معك بدلًا من الفتاة.»

تردد ماجوا دقيقة، ثم قال: «وماذا سأفعل بك أيها المرشد العجوز؟» ثم جذب كورا إليه وخرج بها من القرية. وراقبت القرية بأسرها ماجوا وكورا وهما يختفيان داخل الغابة.

بعد أن اختفى ماجوا وكورا عن الأنظار غادر أنكس الحشد ودخل إلى الخيمة ليفكر. وبعد مرور ساعة تقريبًا خرج وهو يصيح بصوت عال وألقى بفأسه نحو شجرة.

ألقى أنكس خطبة رائعة، وأقنع العديد من محاربي قبيلة الديلاوير بالقتال إلى جانبه هو وهوكاي. اصطحب معه اثنين من أفضل مرشدي الديلاوير، وأمر باقي المحاربين بانتظار تعليماته بالقرية.

انضم دانكن إلى هوكاي، بعد أن وعد أليس بأنه سيحافظ على نفسه. تسللت المجموعة الصغيرة في بطء داخل الغابة، وكانت تسير في حذر كي لا تصطدم بجواسيس قبيلة الهيرون. وسرعان ما عثروا على مخيمات الهيرون وكانوا على وشك إطلاق النيران لكن هوكاي قال: «انتظروا! إنه ديفيد جاموت، العازف.»

وعندما اقترب ديفيد نحوهم أسرع هوكاي إليه وساعده حتى وصل به إلى مكان آمن.

سأله هوكاي: «كم عددهم هناك؟»

أجابه ديفيد: «هناك أعداد كبيرة منهم. وماجوا هناك، ومعه كورا. تركها داخل كهف.»

قال هوكاي: «داخل كهف! قد تكون هناك فرصة لإنقاذها.»

جلس أنكس وهوكاي ليفكرا معًا ويخططا للهجوم على ماجوا ورجاله.

شقت مجموعة محاربي قبيلة ديلاوير إلى جانب دانكن وديفيد طريقهم في الغابة. ووصلوا إلى جدول صغير، وسأل هوكاي هل يعلم أي من المحاربين الشبان إلى أين يؤدي هذا الجدول. قال أحدهم إنه يؤدي إلى الجبال.

فقال هوكاي: «ظننت ذلك أيضًا، سنتبعه حتى نجد أثرًا لماجوا.»

أخذ هوكاي ديفيد جانبًا وقال: «هؤلاء محاربون، استعنا بهم لمساعدتنا في هذه الرحلة. أرى أنه من الأفضل لك أن تمكث هنا وتكون بأمان.»

لكن ديفيد قال: «أشعر في قرارة نفسي أنني أود مساعدة كورا، إنها حنونة وطيبة، وسأكون سعيدًا إذا حاربت من أجلها.»

أومأ هوكاي برأسه وقال: «حسنًا، لنذهب.»

اختبأ الرجال خلف الشجيرات الكثيفة أثناء تقدمهم. واضطروا إلى الزحف على أياديهم وأرجلهم، والزحف على بطونهم. وتوقفوا كل بضع دقائق للاستماع إلى الأصوات بالغابة. شقوا طريقهم إلى النهر دون أن يراهم أحد.

قال هوكاي: «لم يتبق هنا سوى القليل من الأشجار الحية. لا بد أن حيوانات القندس تسببت في ذلك. لم يعد لدينا غطاء، علينا توخي الحذر.»

كان هوكاي محقًّا، فقد كانت هناك سدود بنتها حيوانات القندس وبرك صغيرة في كل مكان. كانت الأشجار الهالكة ملقاة في كل اتجاه. سمعوا صوت فرقعة عالية، فأحنوا رءوسهم جميعًا.

همس هوكاي: «توخوا الحذر يا رجال.»

دوت صيحة عالية في السماء، صدرت من مجموعة صغيرة من مرشدي الهيرون! لقد رأوا هوكاي ورجاله وأسرعوا عائدين إلى معسكرهم.

صاح هوكاي: «هجوم!» وانطلق هو ودانكن والمحاربون. اندلعت معركة ضارية، وفي غضون دقائق تقاتلوا رجلًا لرجل، وتشابكوا بالأيدي! وفجأة، ظهر تشينجاتشجوك والجنرال مونرو، وقاتلوا إلى جانبهم.

لم يستطع ماجوا ورجاله المنكسرون الصمود أمام محاربي الديلاوير والجنود الإنجليز والموهيكانيين الشجاعين؛ فانسحبوا!

أصيب العديد من محاربي قبيلة ديلاوير، لكنهم انتصروا في الجولة الأولى. وبعد استراحة قصيرة هجم هوكاي ورجاله ودارت معركة ثانية.

وبينما قاد تشينجاتشجوك مجموعة من المحاربين في اتجاه، سلك هوكاي وأنكس اتجاهًا آخر. وسرعان ما وصلا إلى منتصف معسكر الهيرون.

وفجأة رأى أنكس ماجوا وهو يفر، فطارده. راقب هوكاي أنكس وهو يركض كالريح، فركض خلفه. وعندما كاد هوكاي أن يدركهما كان أنكس قد سقط قتيلًا. وإلى جواره المسكينة كورا؛ قتلهما ماجوا.

رأى هوكاي ماجوا وهو يحاول الفرار، فطارده وبداخله بركان غضب لم يشعر بمثله من قبل. وفي النهاية أمسك هوكاي بماجوا أعلى قمة جبل. دارت معركة بينهما، وفي غضون لحظة تمكن هوكاي منه، وبدفعة أخيرة سقط ماجوا من فوق جرف، ولقي حتفه.

الفصل السابع عشر

الموهيكان الأخير

حلقت مئات الغربان فوق الأشجار عاليًا، وساد الحزن بين الناس. لم تُسمع أغاني النصر في ذلك اليوم. وقف جميع أفراد قبيلة ديلاوير في دائرة في منتصف القرية؛ كانوا يقيمون شعائر جنازة كورا وأنكس.

وقف تشينجاتشجوك شامخًا. بدا حزينًا، لكنه كان فخورًا بابنه الشجاع. وغنى ديفيد ترنيمة تردد صداها بين الأشجار. وبكى الجنرال مونرو علانية بلا خجل، وحاولت أليس مواساته، ثم قادهما دانكن بعيدًا؛ لقد حان وقت العودة إلى الوطن.

التفت تشينجاتشجوك إلى هوكاي وقال: «صرت الآن وحيدًا.»

وضع هوكاي يده على كتف تشينجاتشجوك وقال: «لست وحيدًا يا تشينجاتشجوك. صحيح أن أنكس رحل، لكنك لستَ وحيدًا.»

ونكس الرجلان رأسيهما وبكيا.